أفلا يتدبَّرون القرآن

معالم منهجيَّة في التدبر والتدبير

أ. د. طه جابر العلواني

٢٠١٠ م

القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ٢٠١٠

قرطبة للبحوث والدراسات والتنمية البشرية

٢٦ ب ش الجزيرة الوسطى، الزمالك، القاهرة



www.alwani.net

taha.alwani@gmail.com


بسم الله الرحمن الرحيم

شكـــــــر وثنـــــــاء

أمّا وقد بلغ الكتاب غايته فلا يسعني إلاّ أن أتقدم بجزيل الشكر ووافر الثناء مقرونين بالدعاء إلى أسرة مكتبي الصغير بالقاهرة: الباحثة خديجة كمال الدين يوسف، التي تابعتني في هذا البحث خطوة خطوة، و لم تألُ جهدًا في تقديم أي عون طلبته في إعداده، والآنسة دينا طارق أحمد، والأخ السيد رفاعي على تنضيد البحث ومراجعته لمرات عديدة حتى أخذ شكله الأخير، والباحثة فاطمة الزهراء محمد على إعدادها الممتاز للفهارس وتوثيقها للهوامش، غير ناسٍ ما استفدته من حواري مع ابنتي وريحانتي د. رقيّة طه جابر، وصديقي أ. د. وليد منير، يرحمه الله، ويجزل ثوابه أنّه سميع مجيب.

المقـــــدّمـــــــــــــــة

كثيرة هيَ الجهود التي بذلت في العقود الأخيرة في العالم الإسلاميّ وخارجه؛ لتوثيق علاقة المسلمين بالقرآن المجيد، وتحويلها إلى حقيقة واقعة، وممارسة مألوفة للمسلمين. وذلك لأنَّ هذه العقود الأخيرة قد برزت فيها ظاهرة إيجابيَّة، انتشرت في كثير من أنحاء العالم الإسلاميّ، واعتمدت هذه الظاهرة على انتشار مدارس «تحفيظ القرآن» وتعليم الناشئة خاصَّة قراءته بإتقان مع الإلمام بأحكام التجويد، وشيء من «تاريخ القرآن الكريم وفضائله». وهذه الظاهرة الطيِّبة المباركة قد انتشرت وفشت، وقامت على العناية بها، وإنمائها مؤسسات كثيرة قام بتأسيسها متطوعون؛ لخدمة القرآن وجهات رسميَّة مثل مؤَّسسات الأوقاف في بعض البلدان.

وقد ألفنا عقد «المسابقات» بين «حفظة القرآن المجيد» وتقديم «الجوائز» السخيَّة للمتقنين منهم، وخاصة في شهر رمضان المبارك شهر القرآن المجيد. ومع انتشار وبروز هذه الظواهر الإيجابيَّة بدأت «ظاهرة إيجابيَّة» أخرى بالظهور، وهي ظاهرة الدعوة إلى العناية بتدبّر القرآن، وهذه الظاهرة أعدّها امتدادًا لظاهرة سبقتها وهي ظاهرة العناية بإعادة كتابة تفاسير معاصرة للقرآن الكريم. فقد أدرك الكثيرون أنَّ كتب التفسير القديمة على أهميّتها وتنوُّعها لم تعد كافية لربط المسلم المعاصر بالقرآن الكريم، حيث تغيّرت عليه أعداد كبيرة من المصطلحات والمفاهيم، وصارت عربيَّة العصور السابقة صعبة الفهم، عسيرة التناول عليه.

ومنذ انحسار الغزو المغوليّ وفشل «حروب الفرنجة» التي سمّاها المؤرخون والكتّاب الغربيّون «بالحروب الصليبيَّة» ومحاولات الكتابة السهلة الميسَّرة في التفسير لم تنقطع في سائر أنواعه، ولدى مختلف الفرق الإسلاميّة. كما ساعدت التطورات المتعلقة بحركة الطباعة والنشر والاستشراق على إحياء وطبع ونشر عدد كبير من عيون التفاسير القديمة وتوفيرها للمعاصرين، وإبراز الاتجاهات المتعدّدة التي خضعت تلك التفاسير لها من الاتجاه الآثاريّ والإشاريّ والعقليّ والبيانيّ والعلميّ والفلسفيّ والظاهريّ والباطنيّ والفقهيّ والعقديّ أو الكلاميّ.

وبعد توسُّع قاعدة العناية بحفظ القرآن وفهمه، وجد الكثيرون أنّ الحاجة ماسَّة إلى استيعاب «التراث التفسيريّ» بقدر الإمكان، ومعرفة علاقاته بالأزمنة والعصور التي أعد فيها، وتجاوزه إلى العصور الراهنة التي

لا تقل حاجتها إلى استلهام معاني القرآن المجيد، والكشف عن مقاصده وقيمه وأحكامه وسننه في بناء المجتمعات وإقامة الحضارات وتأسيس الأمم عن حاجات السابقين. فالقرآن الكريم كتاب مكنون، وهو يتكشّف عبر العصور عن مكنوناته؛ ليستوعب مشكلات وقضايا العصور - كلّها - وبحسب سقوفها المعرفيَّة وعلى اختلاف أنساقها الثقافيَّة والحضاريَّة، فهو مصدق ومهيمن ومستوعب ومتجاوز، وفي استيعابه يستطيع أن يستوعب الكون وحركته، والعالم وأزماته وإشكالاته؛ وليقوم القرآن بذلك لا بد لتاليه من «التطهّر والتدبُّر» فالتطهير الإلهيّ إعداد وتهيئة للإنسان لمسّ «معاني القرآن»؛ ولذلك قال - جل شأنه - [لا يَمَسُّهُ إِلا الْمُطَهَّرُونَ] (الواقعة:٧٩) وهم أولئك الذين طهّرهم الله — سبحانه وتعالى - وامتحن قلوبهم للتقوى [وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا] (الفتح:٢٦). فهؤلاء هم المؤهَّلون للعروج إلى علياء القرآن الكريم بسلّم التدبُّر.

وعلى الرّغم من توافر عشرات الألوف من التفاسير بأنواعها التي أشرنا إليها سابقًا، لكنَّ «أهل القرآن» قد وجدوا أنَّ أهم تفسير للقرآن المجيد هُوَ القرآن نفسه؛ فالقرآن يفسِّر بعضه بعضًا، ثم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلّم - يقوم بالتأويل والتفعيل في الواقع، حيث إنّه - صلوات الله وسلامه عليه - وإن لم يؤلف كتابًا في التفسير، لكنَّه قام بتفعيل وتأويل القرآن في الواقع: واقع «جيل التلقي» فقد كان -عليه الصلاة والسلام- يتلقى القرآن من لدن حكيم خبير، فيتلوه على أصحابه ويأمر الكاتبين أن يكتبوه، ويعلّمهم إياه على مكث، ثم يبرز لهم حِكَمَه ثم يوضّح لهم - عمليًّا - كيفيَّة العمل به ليزَكيهم به، فهو - صلوات الله وسلامه عليه - من علَّمهم الكتاب والحكمة وزَكّاهم به، وجاهدهم به جهادًا كبيرًا حتى أقام خير أمّة وأفضل مجتمع به وبقيمه وأحكامه وهدايته.

فسنن رسول الله الصحيحة الثابتة يؤسّس القرآن المجيد لها أصولها، ويقوم رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلّم- بتأويلها وتفعيلها في واقع معيش، فإذا تم ذلك وواظب -عليه الصلاة والسلام- على ذلك «التأويل والتفعيل» صار ذلك -كلّه- سنّة ثابتة دائمة، وطريقة مستمرة متّبعة يتأسّى بها المهتدون، ويلتزم بها المؤمنون كافّة، لا في عصره -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ- فحسب بل في سائر العصور.

وهناك عنصر ثالث لا بد من العناية به ألا وهو «الزمن» فإذا كان رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلّم- يقوم بتأويل وتفعيل القرآن في الواقع؛ ليجعل منه سننًا، فإنَّ الزمان يكشف عن تأويل الكثير من

آيات الكتاب الكريم: [هَلْ يَنْظُرُونَ إلا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ] (الأعراف:٥٣) وقرّاء الصحابة كانوا إذا سُئلوا عن تفسير آية لا يعلمون لها تفسيرًا أو تأويلاً مأثورًا عنه -عليه الصلاة والسلام- أو منبثقًا عن تدبّر معتبر من أهله قالوا: «... هذا ممّا لم يأت تأويله بعد» كأن يكون من «الغيب النسبيّ» الَّذِي يكشف الزمان عنه، أو من «الغيب المطلق» الَّذِي يبيّنه الله للناس في الدار الآخرة [1].

هذا يأخذنا إلى خلاصة هي: «ضرورة التدبُّر لقارئ القرآن»، فالتدبُّر ليس أمرًا يعطي للتلاوة حقها فحسب، بل لا تعدّ التلاوة تلاوة أعطيت حقها إلا إذا اقترنت بالتدبُّر الواجب ولا يكون «التدبُّر» تدبّرًا حقيقيًّا إلا إذا كان وفقًا للمنهج الَّذِي رسمه القرآن المجيد ذاته للتدبّر، وهذا المنهج ما سنحاول الكشف عنه، وتوضيح معالمه -إن شاء الله- في دراستنا القرآنيّة.

وأما " التدبير" فهو التخطيط للخروج من الأزمات والمشكلات ، ويفترض أن يكون ناتجا وحاصلا ينتج عن " التدبر" فلا تدبير بدون تدبر، بل ارتجال وتخبط. والقرآن كتاب بحياة واستخلاف نتدبره لندبر بهدايته وأنواره شئون وشجون الحياة؛ وحين جعلنا "التدبير" جزء من عنوان هذه الدراسة تنبه لأهم مقاصد " التدبر ألا وهو التدبير" تدبير شئون وشجون الحياة ، ومعرفة كيفية معالجة أزماتها بالقرآن الكريم .

وبذلك يصبح التدبر من أهم وسائل التربية ولتنمية والتزكية وصناعة الحياة الطيبة.

والله الموفق.

كتبه: طه العلواني

١٢ جمادى الثاني ١٤٣١

٢٦ مايو ٢٠١٠

---

[1] - ذلك كان دأب كثيرين من قرّاء الصحابة منهم ابن عباس وابن مسعود وغيرهما راجع. ابن عاشور، مقدمات تفسير التنوير والتحرير (تونس: الدار التونسيه للنشر، د.ت.) ١٥ وما بعدها، وتفسير الآية لدى الطبري وصاحب المنار والرازي. وفي الإتقان والبرهان.

الفصل الأول
المقدمات والمعوقات

قبل الدخول في تفاصيل «**حقيقة التدبُّر**» نود أن نقدّم له ونمهّد بمحاولة تحديد «**معنى التدبُّر**»؛ لأنه يعدّ مفهومًا محوريًّا تدور حوله جملة من المفاهيم الإطاريَّة الأخرى وهي مفاهيم سنتناولها بشيء من الإيجاز لنتبيَّن «**حقيقة التدبُّر**»!! ولقد عرفت علومنا في فترات توسّعها وامتدادها علمًا أطلقوا عليه «**علم التدبير**»[1] وأرادوا به «**علم التخطيط**» القائم على التفكير في أدبار الأمور أي في: عواقبها ومآلاتها. والتفكير في المآلات والعواقب من شأنه أن يجعل الإنسان قادرًا على تحليل وفهم ماضيه وحاضره وحسن الإعداد بناءً على ذلك لما يستقبله. وفي «**التتريل**»: و **[فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا]** (النازعات:٥).

والقرآن المجيد «**كتاب مكنون**» يُكِنُّ في ثنايا آياته ما يستوعب به الزمان ويتجاوزه، فلا نبيّ ولا رسول بعد مُحَمَّد – صلى الله عليه وآله وسلّم – ولا وحي نزل أو يترل بعد القرآن الكريم؛ ولذلك فإنّ هذا القرآن تتكشّف آياته عبر العصور عما به تُستوعب قضايا تلك العصور ومشكلاتها، وما يستجد فيها من وقائع وأحداث.

القرآن بين التحدي والتيسير:

إنّ هذا القرآن يحمل من الصفات والخصائص والمزايا ما يجعله كتابًا متحدّيًا معجزًا لا يدانيه في أيّ من خواصّه وصفاته ومزاياه أيّ كتاب، ولا يقاربه أيّ خطابٌ.

[1] - «علم التدبير» علم بسط القولَ فيه الأستاذ الراحل حامد ربيع في دراسته في «مستقبل الإسلام السياسي» الصادر عن «المنظمة العربية للتربية والعلوم» «معهد البحوث والدراسات العربيّة» بغداد سنة ١٤٠٣هـ ١ - ١٩٨٣م وفي مقدمته الضافية لكتاب ابن الربيع «سلوك المالك في تدبير الممالك» وقال فيه: «علم التدبير» أصيل في معارفنا وتقاليدنا العربيَّة. من شكك في صحة هذه الملاحظة ليس عليه سوى أن يعود ليقرأ مؤلف شهاب الدين ابن ابي الربيع عن «سلوك المالك في تدبير الممالك» حيث خصّص فصلاً كاملاً تناول فيه ما يسمّى في اصطلاحات المعاصرين «علم التخطيط السياسيّ». والتخطيط السياسي ليس مجرّد انطباع أو تصور. إنّه معالجة المستقبل في ضوء الحاضر والماضي. إنّه إطلاق للمتغيّرات في عالم الأحداث المتوقعة أو المختلفة.وقد ربط حامد ربيع بين «علم التدبير» و«التدبُّر» وإدراك المآلات في المستقبل بالنظر وعلى هذا «فالتدبُّر» يقود الإنسان المتدبّر إلى بناء تصور عمرانيّ متين قويم يستوعب الماضي والحاضر وينطلق باتجاه بناء المستقبل، وتشكيل صورته وهذا المستقبل ممتد فيما بين الحياة الدنيا والآخرة. وهو الذي يجعل الإنسان قادرا على أن يعد للمستقبل عدته: [أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ] (الزمر:٢٤) ولا يجد في نفسه حاجة إلى أن يقول: [أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ] (الزمر:٥٦-٥٨) انظر تفسير القرطبي وتفسير ابن كثير. كل ذلك لا يحتاج «المتدبّر» أن يقول شيئًا منه يوم القيامة لأنّه نظر في عواقب الأمور وأعد لها عدتها. وتدبّر القرآن وأحسن الفهم عن ربه وخالقه فحسنت عاقبته ومآله، وأرضى ربه فأرضاه ربّه. انظر حامد ربيع، مستقبل الإسلام السياسي (بغداد: المنظمة العربية للتربية والعلوم، ١٩٨٣) ٥.

لقد تحدَّى القرآن جميع العقلاء من الإنس والجنّ أن يأتوا بمثله أو بمثل عشر سور من سوره أو بمثل سورة واحدة، فعجز الجميع أن يأتوا بمثل شيء من ذلك، مع توافر سائر الدواعي والدوافع على أن يفعلوا فلم يفعلوا، وقاتلوا وحاربوا وبذلوا الأرواح والمهج على أن يستجيبوا لذلك التحديّ!! لأنّهم أعجز من أن يستجيبوا له.

والقرآن الكريم مع تيسيره بلسان رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلّم - **[فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ]** (الدُخان:٥٨)، وتيسيره للذّكر بصفة عامَّة: **[وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ]** (القمر:١٧) بيْدَ أنّ قارئه لا يستطيع الاستغناء عن «**تدبّر آياته**» تدبّرًا دائمًا متكرّرًا ومستمرًا، بحيث يصبح «**التدبُّر**» عنده قرين القراءة، والمصاحب الدائم لها فلا يفارقها بحال من الأحوال، ولا ينفك عنها؛ لأنّ مجرّد الغفلة عن «**التدبُّر**» تؤدّي إلى انغلاق «**قوى الوعي الإنسانيّ**» وفي مقدمتها القلب وإقفالها بوجه الفهم والفقه في القرآن، والأخذ عنه، لتوقف وسائل ومراتب الإدراك.

ومن شأن هذا الكتاب العزيز أنّه إذا قرئ جعل بين قارئه المؤمن به والمقبل عليه بكل قوى وعيه حجابًا وساترًا يحول بينه وبين التأثير السلبيّ في ذلك القارئ الخاشع الضارع: **[وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا (٤٥) وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْءَانِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا]** (الإسراء:٤٥ -٤٦).

وقد عجز الإنس والجن عن الإجابة على التحدي: **[قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْءَانِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا] (الإسراء:٨٨) [أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ](هود:١٣) [أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ] (يونس:٣٨)** فهؤلاء الذين لم يكونوا يولّون الأدبار في الحروب وصراع الأقران إلاّ قليلاً إذا قرعت آذانهم قوارع آياته ولّوا على أدبارهم نفورًا، وتنادوا للتشويش عليه، وحجب الناس عن الاستماع إليه: **[وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْءَانِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ]** (فصّلت:٢٦).

ويقول –سبحانه وتعالى- وهو المتكلّم به الّذي فصّله على علمه: **[وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلا خَسَارًا]** (الإسراء:٨٢) فكأنَّ لهذا القرآن قوى وعي وطاقات يميِّز بها بين من يخاطبهم، ففريق يشفي صدورهم ويغمرهم بالرحمة يعرفهم القرآن ويعرفونه فتخبت له قلوبهم عندما يطل عليها، وقد **[تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ]** (الزُّمر:٢٣).

والجلود هِيَ الأبدان عبَّر عنها بمراكز الإحساس فيها، والقلوب هِيَ الأنفس- التي قد يطلق بعضهم عليها الأرواح، ولينها: بشاشتها واستجابتها. وهي نفسها سوف تشهد على حملتها وأصحابها: **[حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ]** (فصِّلت: ٢٠-٢١).

إنّ هذا القرآن يقرؤه أقوام فيشفي صدورهم، ويقرؤه آخرون فيزيدهم ضلالاً على ضلالتهم وخسارًا وحيرةً وتيهًا: **[قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ]** (فصِّلت:٤٤). **[وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلا خَسَارًا]** (الإسراء:٨٢) إنَّها حيويَّة القرآن وفاعليَّته المتجدّدة المتنوعة التي لا تستطيع قوى الوعي الإنسانيّ أن تتجاهل تأثيراتها أو تُعرض عنها وتنساها.

دعوة القرآن لتدبّر آياته:

وهنا تأتي دعوة القرآن المجيد لتدبّر آياته، وأمره بالتدبُّر وتأكيده عليه، فالقرآن يقول للمخاطبين به: (إنّ التدبُّر هُوَ مفتاح «**قوى الوعي الإنسانيّ**» فلا مفتاح لهذه القوى غيره، ولا سبيل لمسِّ معاني هذا الخطاب الإلهيّ إلا ذلك السبيل فبالتدبُّر وحده تفهم أبعاده المتنوعة).

ففي مكة يترل قوله تعالى: **[كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ]** (ص:٢٩). وكانت قريش ترى أنّها مستودع «**النُّهى والحكمة العربيَّة**» فهم أهل الحرم، وأهل أم القرى ورؤوس العرب، فأين ذهبت أحلامهم؟ وأين غيَّبوا عقولهم؟ ولِمَ أسلموا زمام قيادتهم إلى سفهائهم والحقدة

الحاسدين أمثال أبي جهل من رجالهم؟ إنّهم لو تدبّروا آيات الكتاب لتذكر أولو الألباب ما يتذكر فيه من تذكر!! لكنَّهم لم يتدبّروا القرآن فسفهت أحلامهم، وطاشت عقولهم، فضلّوا وأضلوا.

ونزل فيها - أيضًا - قوله تعالى: **[أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الأَوَّلِينَ]** (المؤمنون:٦٨). إنّهم لم يتدبّروا ليتذكروا ويتفكروا ليعقلوا، ثم إنّهم يزعمون أنّهم أولو ألباب ولو كانوا كذلك لذكرتهم ألبابهم «**بالعهد الإلهيّ**» **[وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ]** (الأعراف:١٧٢ -١٧٣).

ولو كانوا أولي ألباب لتذكروا أبويهم إبراهيم وإسماعيل —عليهما السلام-الذين يفخرون بالانتساب إليهما، ويطوفون ليل نهار بالبيت العتيق الّذي بنياه في بطن مكة فصار فخرهم وعزّهم وشرفهم بين العرب: **[وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ]** (الزُّخرف:٤٤).

ولو كانوا أولي ألباب ونهى لتذكروا العهد الإلهيّ بين الله - تعالى - وبين أبيهم إبراهيم: **[وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ]** (البقرة:١٢٤).

إنّهم وآباءهم يعرفون أنَّ إبراهيم كان على التوحيد والحنيفيَّة وأنَّ أبناءه الذين يعتزُّون بالآباء ولا يريدون مخالفتهم كان عليهم ألاّ يخالفوا أباهم إبراهيم وولده إسماعيل في التوحيد فيقبلون على رسالة خاتم النبيّين محمد -صلى الله عليه وآله وسلّم - ويؤمنون به وبما أنزل عليه؛ لأن الشرك ظلم عظيم ولا ينال عهد الله ولا يدخل في دعوة إبراهيم إلاّ أولئك المؤمنون الموحّدون، أمّا المشركون فلا ينالون عهد الله - تعالى - لأنّه قال: **[وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ]** (البقرة:١٢٤) وكون آباءهم الأدنين والأقربين غافلين عن ذلك، لأنّهم لم يأتهم نذير خاص بهم لا يقوم مسوّغًا - عند أولي الألباب - لتجاهل إبراهيم وولده إسماعيل وكلاهما أنبياء وهما اللّذان يدّعون الانتساب إليهما، ويعظّمون البيت الّذي بنياه وبه يرتبط وجودهم كلّه.

إنَّ عدم ممارستهم «**التدبُّر**» قد قادهم إلى النار، ولو أنَّهم تدبّروا القرآن لما سقطوا في كل تلك المهالك، ولعرفوا صدق رسولهم. وأدركوا صدق رسالته، ولكنّ عدم تدبّرهم قادهم إلى الهلاك والبوار.

أمّا في العهد المدنيّ فيأتي قوله تعالى: **[أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا]** (النساء: ٨٢). في البيئة المدنيَّة تضافر أهل الكتاب والمشركون على حرب القرآن المجيد الَّذي أمر رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلّم- أن يجاهدهم به جهادًا كبيرًا، فأخذوا يزعمون أنَّ فيه اختلافًا، وأنَّ فيه متشابهات، ويهود المدينة لطول الأمد وقسوة القلوب وتنازعهم واختلافهم وولعهم بالشقاق والخلاف وبغيهم وحسدهم كانوا إذا لم يأتهم العلم جعلوا من أهواءهم وآرائهم علومًا، وإذا جاءهم العلم اختلفوا فيه وتنازعوا تأويله، وإذا جاءهم ما يبيّن لهم الَّذي يختلفون فيه اختلفوا فيه كذلك!! وأكثروا من التشقيق فيه حتى يضاف إلى مصادر الاختلاف لا إلى وسائل الاتفاق. والمشركون يثقون بهم لأنّهم -في نظرهم -أهل كتاب سابق، ويفضّلون استشارتهم على استعمالهم لعقول أنفسهم وتدبُّرهم، فيزيدونهم خبالاً، لأنّ يهود لم يكونوا يتمنّون أن يقع خير إلاّ عليهم فكانوا يقولون لهم: أنتم أهدى من مُحَمَّد وأصحابه: **[أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلا]** (النساء: ٥١). وكان هناك المنافقون - أيضًا - الذين مردوا على النفاق يؤمنون بما يرغبون، ويكفرون بما وراء ذلك. فيأخذ «**التدبُّر**» معاني أخرى فيكون ما يتوقع من المتدبّر أن يستفيده منه هُوَ اليقين بأنّ هذا الكتاب كتاب الله وكلامه. وأنّه محفوظ به - جل شأنه - ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأنّه معصوم من أن يصيبه ما أصاب الكتب السابقة التي أوكل حفظها إلى الأحبار والربّانيّين ففرّطوا وأضاعوا وغيّروا وبدّلوا وحرّفوا. فتأتي الدعوة إلى «**التدبُّر**» في صورة دعوة إلى مقاومة قسوة القلوب، ومجافاة الفسق **[أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ]** (الحديد: ١٦)، وعدم التأثُّر بدعايات الكافرين والمشركين والمنافقين.

التدبُّر والخشوع:

فالتدبُّر هنا علاج هام جدًا يؤدي إلى الخشوع لله والإخبات له، ومخالفة أهل الكتاب في أسوأ أخلاقهم وسلوكيّاتهم، ومصادر انحرافاتهم «**قسوة القلوب**» فهي مصدر الفسق، ومصدر الانحراف،

فذكرت الآية الكريمة بعض لوازم التدبُّر، وحذَّرت هذه الأمَّة من أن تصاب بمثل أمراض أهل الكتاب من الأمم السابقة فتقسو منها القلوب، وتقع في الفسق والانحراف وتفقد القدرة على «**التدبُّر**» كما فقدت تلك الأمم ذلك بعد أن طال عليها الأمد، وقست منها القلوب فلم تعد تتدبّر ما أنزل على أنبيائها لتهتدي.

ثم تأتي الآية المدنيَّة الثالثة: **[أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا]** (محمد: ٢٤)، وهذه الآية الكريمة تجعل أقفال القلوب وإقفالها مقابلاً لعدم «**التدبُّر**» فإمّا «**تدبّر القرآن**» وإمّا «**إغلاق القلوب**»، ووضع الأقفال عليها لتصبح مجرد مضغة ومضخة للدم لا غير، فعدم تدبّر أهل مكة أنساهم أنفسهم، وجعلهم يغفلون عن بدهيّات ما كان لهم أن يغفلوا عنها مما سبقت إشارتنا إليه. وإعراض المشركين والمنافقين ويهود المدينة عن «**تدبّر القرآن**» جعل «**أهل الكتاب**» يفضلون اللّحاق بالمشركين وتصويبهم في شركهم وضلالهم، فيسجل القرآن المجيد عليهم هذا الموقف المخزي، ويقول: **[أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلا]** (النساء: ٥١)، وهذا ضلال لا يقاربه ضلال. وبقي المنافقون مقيمين على أمراضهم، يتخبَّطون فيها مثل أولئك الذين يتخبّطهم الشيطان من المسّ. ولو تدبّروا القرآن لشفاهم من أمراض قلوبهم.

فما الَّذي حدث للمسلمين اليوم؟!

التدبر والزمن وشفاء الأمراض

لا شك أنَّ أزمات المسلمين وأمراضهم الكثيرة يرجع معظمها إلى «**هجرهم للقرآن**» وإعراضهم عن تدبّره، وعدم الاهتداء بآياته، والاستشفاء بأنواره. ونستطيع أن نشهد ذلك ونلمسه في كل ما تعانيه الأمَّة من فرقة وتدابر وتنافر وذلة وصغار وانحرافات وفساد وأزمات وأمراض. ومن يتدبّر القرآن المجيد وينظر في واقع الأمَّة سيرى مصداق ذلك ولا شك.

إنّ «**تدبّر القرآن**» شفاء لما في الصدور، وإعداد لقوى الوعي في الإنسان وشحذ لها لتؤدي أدوارها بأفضل شكل وأحسنه في إخراج الأمّة من حالة الغثائيّة[١] والالتحاق بالدواب الصم البكم الذين لا يعقلون.

---

[١] إشارة إلى حديث أخرجه أحمد في مسنده وأبو داود في سننه على ما في الفتح الكبير عن ثوبان. «يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها قالوا: أو من قلّة نحن يومذاك يا رسول الله؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل وليترعنّ الله المهابة من قلوب عدوكم منكم وليقذفَنَّ في قلوبكم الوهن، قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: حبُّ الدنيا وكراهيَّة الموت»!!انظر السيوطي، الفتح الكبير (بيروت: دار الكتاب العربي، د.ت.) (٤٣٨/٣).

كما أنّ «**التدبُّر**» يضاعف طاقات الإنسان العقليَّة والنفسيّة، ويشفى من أمراض عضويَّة كثيرة، وما الأطروحات الكثيرة التي تنتشر في زماننا هذا عن شفاء كثير من الأمراض الشائعة، الناجمة عن ضغوط الحياة المعاصرة بعمليّات تركيز الذهن الإنسانيّ في شيء محدّد من ماء أو خضرة أو أفكار وصور ذهنيَّة مريحة إلا دليل على ضرورة «**التدبُّر**» للإنسان العاقل السويّ.

أثبتت بعض التجارب الطبيَّة أنّ المرضى «**بضغط الدم**» وزيادة نسبة « **الكولسترول** » يمكن أن يعالجوا بالتدبُّر في الزمن وتركيز التفكير فيه؛ فإنّ ضغط الدم والكولسترول ينخفضان بنسبة (٢٠%)، كيف؟! ينصحون بأن يسترخى الإنسان، ويبدأ بتخيّل «**الزمن**» بمثابة نهر جار ينساب من مكان عال، تطفو على سطحه كرة في شكل برتقالة كبيرة هِيَ رمز T أو فترة زمنيَّة محدّدة تسير في اتجاه واحد، فنطلق على فترة منه ماض وعلى فترة ثانية حاضر وعلى فترة ثالثة مستقبل. ثم يتخيّل المريض هذا النهر وقد بدأ ينحني، ويسير في شكل شبه دائريّ حتى يصنع دائرة كاملة. ثم يبدأ النهر في فيضان داخليّ يستمر في زيادة ماء الدائرة لتصبح بعد قليل بحيرة هادئة ساكنة، وتتوقف المياه عن التدفق لتعطى سطح البحيرة مزيدًا من الهدوء والسكون والبريق المشع لتصبح كالمرآة. ويلقي المتأمّل نظرة على ذلك السطح الجميل ليرى الكرة التي تخيلها رمزًا للفترة الزمنيَّة طافية، لكنَّها ساكنة متوقفة عن الحركة لترمز في ذهن المتأمل إلى توقف الفترات الزمنيَّة فلا ماض ولا حاضر ولا مستقبل؛ لأنَّ الزمن لا حدود له بعد أن يتوقف (وهل الموت إلاّ توقف الزمن)؟ حين تحدّق في تلك البحيرة الهادئة وتسترخي سوف تغمرك سكينة عجيبة تعمل على خفض النشاط الكهربيّ في عضلات جسمك إلى أدنى حدّ[1]!!

إنّ القلق الَّذِي ساور الشاعر القائل:

ألا ليت الشباب يعود يومًا * * * فأخبره بما فعل المشيب

أو القائل:

دقات قلب المرء قائلة له * * * إنّ الحياة دقائق وثواني

---

[1] راجع حسن عباس زكي، الإنسان والوجود (القاهرة: دار النهار، ١٩٩٩)٤٠-١ ١٣. وهذا التوقف أو تخيّله يجعل الانسان قادرًا على تجاهل أو تناسي كثير من المشاعر السلبيّة التي تنجم عن التفكير بأنّه قد فعل ما كان ينبغي له ألاّ يفعله في الماضي أو يفكر في فرص أضاعها، أو يخشى مستقبلاً لا يدري ما قد يحدث له فيه... كل تلك المشاعر إذا تخيَّل توقف الزمن يستطيع تجاوزها، والقرآن الكريم يستطيع أن يحقق ذلك بشكل أفضل وأتم.

لا يساورك - آنذاك - فلن تنظر للزمن نظرة عدائيّة باعتباره متحكمًا فيك، لأنّك عدّلت من وعيك به، فلن تقول ما قال المشركون **[وَقَالُوا مَا هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلا يَظُنُّونَ]** (الجاثية: ٢٤).

وقد لاحظ جاك بيرك[١] في كتابه «**إعادة قراءة القرآن**»: أنّ الزمان في القرآن زمان مفتوح لا تتميَّز فيه أيّ نقطة عن النقطة الأخرى. وتأمَّل ما جاء عن الزمان بمستوياته العديدة في القرآن. وقوله —صلى الله عليه وآله وسلّم- في خطبة حجة الوداع: «**إنّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض...** »[٢] وتأمل في المراد باستدارة الزمان ودلالاتها. ثم تعال لنتدبّر - معًا - قوله جل شأنه: **[اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ]** (النور: ٣٥).

إنّك لو جلست ساعات بل أيامًا تتدبّر وتتفكر في الصور الرائعة التي ترسمها لك هذه الآية الكريمة وهي تضرب لك مثلاً لنوره سبحانه وتعالى فإنك لن تملّ، ولن تنقضي عجائبك، وسوف تجد آثار ذلك في جسمك ونفسك وعقلك وقلبك وذهنك وسائر قوى وعيك. وتدبّر - إن شئت - قوله جل شأنه: **[مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ]** (محمد: ١٥). يستطيع علماء الطبيعة والأغذية والأشربة أن يتدبّروا هذه الآيات ويتأمَّلوا الصور التي ترسمها شهورًا وأقسم غير حانث أنّهم لن يملّوا، وسوف يتوصلون إلى أمور في غاية الأهميَّة فيما ذكر وفيما لم يذكر مما تستدعيه تلك الصور. إنّ أفلام الكارتون وأفلام الرعب وأفلام الطبيعة وأفلام الاكتشافات والخيالات العلميّة تعجز عن تقديم عائد ثقافيّ يمكن لآية كريمة واحدة أن تحققه في قوى الوعي الإنسانيّ؛ ولكنّ ذلك لا يتحقق إلا «**بالتدبُّر**». فبه يكون الإنسان قادرًا على حسن استقبال

---

[١] - جاك بيرك، القرآن وعلم القراءة، والعنوان الأصلي هو: إعادة قراءة (القرآن)، ترجمة: منذر عياشي (حلب: مركز الإنماء العربي، ١٩٩٦) ٧٢-٣.

[٢] - وراجع خطب النبيّ- صلى الله عليه وآله وسلم- في جمهرة خطب العرب كذلك، و السبكي، الدين الخالص جـ٤، ضمن خطب نبويّة اختارها المؤلف، و ابن حزم، حجة الوداع (القاهرة: مكتبة الخانجي، د.ت.).

«**القول الثقيل**» الَّذي أعد الله سبحانه نبيّه -صلى الله عليه وآله وسلّم- له فبالتدبُّر يصبح الإنسان قادرًا على استقبال أنوار القرآن والانفعال بها، «**وبالتدبُّر**» يصبح الإنسان قادرًا على القيام بمهامه الاستخلافيَّة، والوفاء بالعهد الإلهيّ، والقيام بحق الأمانة، وأعباء الابتلاء. و«**بالتدبُّر**» يستطيع الإنسان أن يحيى حياة طيّبة، ويجزى في الآخرة الجزاء الأوفى، ويعاد إلى الجنّة التي أخرج الشيطان منها أبويه.

التدبُّر وقوى الوعي الإنسانيّ:

إنّ «**التدبُّر**» يشحذ قوى «**الوعي الإنسانيّ**» ويجعلها قادرة على التفتّح بالقرآن على الكون وما فيه والزمان والدوائر التي ينظمها، والمكان وما يشتمل عليه، ويحيط به، فيدرك المتدبّر قدرات القرآن الهائلة على «**التصديق والهيمنة والاستيعاب والتجاوز**». لمختلف الأنساق الثقافيَّة والحضاريَّة.

إنّ «**التدبُّر**» يكشف عن «**مكنون القرآن**» الَّذي يتكشّف عبر الزمن، ووفقًا للسقف المعرفي والعلميّ له. ويؤثّر في مستويات عديدة، فهو يعمل على مستوى «**الشعور**» لتقويم مسيرته، وتدريبه على إنتاج الدواعي والدوافع والنوايا الخيّرة. ويتجاوز في تأثيره «**الشعور**» إلى «**اللاشعور**» فيحرك فيه استعداداته الكامنة للتأمّل في «**قضايا الزمن**» الَّذي قدّمه القرآن المجيد بأشكال ومقاييس استوعبت كل ما بلغته البشريَّة اليوم وتجاوزته، فيقول فيه: **[وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ]** (الحج:٤٧) ويقول: **[تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ]** (المعارج:٤). وهناك «**الزمان اللامتماثل**»، و«**الزمان النفسيّ**» الَّذي هُوَ بمثابة «**الزمن الشخصيّ**» **[وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ]** (الرُّوم:٥٥). وهناك «**الزمن الدائريّ**» الَّذي يجعل الأفعال في الماضي والحاضر حاضرة لا تغيب. فالمتدبّر يجد نفسه يقلّب بصره وفؤاده وقوى وعيه - باستمرار - في قضايا الخلق والمصير والمآل دون انفصال عن اللحظة التي هُوَ فيها، وبذلك ينأى بنفسه عن العبثيَّة والعدميَّة وعدم الشعور بالمسئوليَّة، وينزه نفسه عن الالتحاق بأضداد أولئك الذين قال الله -تعالى- فيهم: **[إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ]** (محمد:١٢).

إنّ «**التدبُّر**» يجعل الإنسان قادرًا على أن ينفذ إلى ما وراء المعاني الظاهرة أو المتبادرة إلى الأذهان البسيطة، فيفجّر في قوى وعي من آتاه الله الاستعداد ينابيع الحكمة في قلبه: **[يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلا أُولُو الأَلْبَابِ]** (البقرة:٢٦٩).

إنّ «**التدبُّر**» -كما أوضحنا سابقًا- مفهوم قرآنيّ محوريّ يستمد أهميَّته ومحوريَّته من إضافته إلى القرآن المجيد، فهو ليس مطلق تدبّر في قضيّة أو مشكلة أو نصّ شعريّ أو عاقبة أمر أو ما يترتب على موقف... أو غير ذلك. بل هُوَ تدبّر في كتاب سمّاه الله -تعالى- وهو منزّله بأسماء كثيرة، ووصفه بصفات عديدة فتعدّدت أسماؤه، وتنوعت صفاته فهو «**القرآن والكتاب والفرقان والذكر والتذكرة والذكرى والتنزيل والحديث وأحسن الحديث والحكم والحكمة والحكيم والمحكم والموعظة، والشفاء والهدى والرحمة والصراط المستقيم وحبل الله والبصائر والروح وأحسن القصص والبيان والتبيان والمبيّن، والقول الفصل والنجوم والمثاني والنعمة والبرهان والبشير والنذير والقيم والمبارك والمصدق، والمهيمن والهادي والنور والحق والعزيز والكريم والمكنون والعظيم**» ووصفه الله -جل شأنه- بأنّه «**أحسن ما أنزل**» و«**أحسن القصص**» «**وأنَّ فيه ذكر وشرف من يؤمن به**»، وأنَّه «**بشرى**» و«**هدى**» و«**فصّله الله على علم**» و«**قرآنًا عربيًّا**» و«**صحف مطهّرة**» و«**البيّنة**» و«**صحف مكرّمة**» و«**كلام الله**». و«**قولا ثقيلا**» و«**نبأ عظيم**» و«**غير ذي عوج**» و«**لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه**». وأوصافًا أخرى لسنا في معرض حصرها.

وحين يطلق الله -تبارك وتعالى- على كتابه الكريم كل هذه الأسماء والصفات فذلك يفرض على القارئ حين يقبل على القرآن الكريم أن يستحضر في عقله وقلبه ووجدانه وسائر قوى وعيه كل المعاني التي حملتها هذه الأسماء والصفات التي ذكرها منزّل الكتاب له. ويستبعد سائر المشاعر والتصورات التي تجعل لدى الإنسان شعورًا بأنّه يقترب من كتاب لا يختلف عن غيره إلاّ في نسبته المجرّدة إلى الله -تعالى- إنّ الأمر أكبر من ذلك بكثير. إنّه كون كامل في كتاب، بل هُوَ كتاب كونيٌّ يستوعب الكون وحركته.

التدبُّر بين الفهم والمفهوم:

حين اقترح علينا تعريف القرآن تساءلنا: هل يمكن تعريفه؟ أعني «**تعريفًا جامعًا مانعًا**» -على سنن المناطقة- بحيث يرسم تعريفه له صورة تامة في الذهن تطابق صورته في وجوده الخارجيّ وفي الواقع؟ الجواب

الوجيز: لا؛ والجواب على التفصيل: أنّ هذا الكتاب الكريم مطلق، والإنسان في أي عصر من عصوره نسبيٌّ، والنسبيُّ لا يحيط بالمطلق إحاطة تامَّة بحيث يحيط بجنسه وفصوله وخواصّه وجواهره وأعراضه، لكن من الممكن له أن يقاربه. والقرآن كون معادل للكون، مستوعب لحركته، فإذا نظرنا إلى الكون في أجزائه التي تجاوز سائر الأعداد، ولا يحصيها إلاّ خالقها -جل شأنه- فإنّ «**تدبّر القرآن**» يمكن إدراكه وتعلّم ممارسته من غير حاجة إلى تعريفه بالحد أو بالرسم؛ إذ من المتعذر -تقريبًا- تعريفه للعجز عن إحصاء الكليَّات التي تصاغ التعريفات من تركيبها، وبالتالي فإنّ صياغة مفهوم له ليس بالأمر اليسير، ولذلك فإنَّنا سنقاربه بطريقة القرآن المجيد التي تعتمد على ذكر كل ما يتصل بحقيقة الموضوع المراد تعريفه وصياغة مفهوم له. فذكر تلك الأوصاف، وفيها الكليّات المتعلقة بالأجناس والفصول والأنواع كفيل بإيضاح حقيقة الموضوع فمن شاء -بعد ذلك- أن يبني عليها، ويصوغ تعريفًا أو يبني مفهومًا له فعل؛ لأنّ «**التدبُّر**» فيه من المعاني ما يجمع بين مفاهيم «**التفكّر والنظر والتذكّر والتعقُّل والعلم**»، ومن أبرز معانيه المتبادرة إلى الذهن هو: النظر في مآلات الأمور وعواقبها من ناحية، وما يستلزمه ذلك من تدبير الأمور في بداياتها بقدر أكبر من العناية والاهتمام لتحسن مآلاتها، وتستقيم خواتيمها.

يقول الراغب الأصفهاني[1]: التدبير: التفكير في دبر الأمور. والتدبير: أن تفعل الشيء وأنت غير غافل عن المآل. ومنه **[فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا]** (النازعات:٥) ملائكة موكلة بتدبير أمور الخلق.

ويقول أَبُو حامد الغزاليّ[2]: التدبُّر: وراء حضور القلب، (يريد أنّه يتجاوز حضور القلب إلى ما هُوَ أبعد منه)... والمقصود من القراءة التدبُّر ونقل عن الإمام علي قوله...: لا خير في قراءة لا تدبّر فيها.. وإذا

[1] الحسين بن محمد بن المفضل، أبو القاسم الاصفهاني (أو الاصبهاني) المعروف بالراغب: أديب، من الحكماء العلماء.
من كتبه (محاضرات الادباء - ط)، و (الذريعة إلى مكارم الشريعة) و (جامع التفاسير) كبير، طبعت مقدمته، أخذ عنه البيضاوي في تفسيره، و (المفردات في غريب القرآن - ط) نظر ترجمته في الزركلي، الاعلام (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٤) ٢/٢٥٥.

[2] هو محمد بن محمد بن محمد أبو حامد الغزالي. فقيه شافعي أصولي، متكلم، متصوف. رحل الي بغداد، فالحجاز، فالشام، فمصر وعاد الي طوس .
من مصنفاته: ((البسيط))؛و((الوسيط))؛ و((الوجيز))؛و((الخلاصة)) وكلها في الفقه؛ و((تهافت الفلاسفة))؛ و((إحياء علوم الدين)).
انظر الزركلي، ٧/٢٤٧.

لم يتمكن من التدبُّر إلا بترديد (ما يقرأ) فليردّد. ونقل عن بعض الصالحين قوله: «**آية لا أتفهمها، ولا يكون قلبي فيها لا أعد لها ثوابًا**»[١]

وهكذا يبدو التدبُّر -عنده- مفهومًا من أهم مفاهيم الكتاب الكريم تتَّصل به وتنفصل عنه شبكة واسعة من المفاهيم الفرعيَّة، والمصطلحات المعرفيّة، ومن المفاهيم التي تتصل به: «**التفكّر، والنظر، والتذكّر، والتعقّل والعلم والفهم والفقه والتبصّر، والتأمُّل والاعتبار...** » و«**التدبُّر**» يدل على هذه المعاني بمستويات الدلالات المختلفة.

«**فالتدبُّر**» قد يبدأ بمستوى واحد من المستويات المذكورة ثم يتدرج إلى مستويات أعلى؛ كأن يبدأ «**بالفهم**» مطلقًا فإذا ارتقى إلى مستوى «**فهم الأمور الدقيقة**» التي قد تخفى على كثير من الناس صار «**فقهًا**»، وقد يبدأ «**بالتفكّر والتأمّل**» فإذا ارتقى إلى مستوى «**الفكرة المتكاملة**» التي يمكن عرضها والاستدلال لها صار «**نظرًا**»، وهكذا حتى يستوعب هذا المفهوم الشامل كل تلك المفاهيم والمصطلحات ليجعل منها روافد تصب في محيط معانيه. ولا بد -بعد ذلك- أن نلاحظ أمورًا عديدة ونستحضرها لنقوم بالتدبُّر بشكل مناسب منها ما يلي:

أولا: إنّ بين أيدينا كتابًا مهيمنًا تحمله عقليّات مهيمن عليها لا بد لها من التحرّر من تلك الهيمنة لتتمكن من تدبّر القرآن، ونملك كتابًا لا يقهر تحمله عقليّات مقهورة[٢]. لن تحسن فهمه، ولن يستقيم تعاملها معه بدون التحرّر من ذلك القهر!!

ثانيًا: إنّ القرآن لم يشتمل على رسالة يمكن أن تنحصر في مخاطبة أمّة واحدة، بل هُوَ كتاب الأنبياء والمرسلين -كافَّة- فقد ضم بين دفّتيه رسالات جميع الأنبياء والمرسلين في العقيدة وكليّات ومقاصد الشريعة التي شكلت دعائم الإسلام، فكما أنّ الدين عند الله «**الإسلام**» فإنّ «**الكتاب عند الله القرآن**». كما أنّه يشتمل على رسالات الأنبياء الذين اندثرت أممهم حيث حفظ القرآن لنا تراثهم في العقيدة والكليّات الشرعيَّة. وبذلك وحَّد أمَّة الأنبياء تمهيدًا لتوحيد البشريَّة، وجمع كلمتها على قيم مشتركة. فهو أم الكتاب

[١] الغزالي، إحياء علوم الدين، ربع المنجيات الباب الثالث في أعمال الباطن في التلاوة (٢٤٨/٤).

[٢] وقارن بـــ محمد ابو القاسم، الأزمة الفكريَّة (بيروت: دار الهادي، د.ت.) ٨٣.

«**الجامعة**» لكل ما هُوَ من كليّات وأصول الكتب الأخرى، مثل أم القرى، والرأس يعد أمّ الجسد. يقال: «**أمّ رأسه**»؛ لأنّه مجموع القوى الحسيَّة والمعنويّة -كلّها- التي للإنسان نفسه [1].

ومنه أم الكتاب ألحق الله بها جميع الكتب والصحف المنزلة على الأنبياء. وهو الكتاب الكونيّ الّذِي يستطيع أن يخرج البشريّة بما يقدمه من حلول لأزماتها ومشكلاتها من سائر تلك الأزمات.

وقد امتاز القرآن المجيد إضافة إلى مزاياه التي تندُّ عن الحصر بخاصّتين:

الأولى: تيسيره للذكر لئلا يحال بينه وبين أي فصيل من الناس أو قبيل في العالم عبر العصور. يقول الإمام الغزاليّ: «**فهم عظمة الكلام وعلوّه، وفضل الله -سبحانه وتعالى- ولطفه بخلقه في نزوله عن عرش جلاله إلى درجة إفهام خلقه... وإيصال معاني كلامه الّذِي هُوَ صفة قديمة قائمة بذاته إلى إفهام خلقه؟ وكيف تجلّت لهم تلك الصفة في طيّ حروف وأصوات هِيَ صفات البشر، إذ يعجز البشر عن الوصول إلى فهم صفات الله -عز وجل- إلا بوسيلة صفات نفسه. ولولا استتار كنه جلال كلامه بكسوة الحروف لما ثبت لسماع الكلام عرش ولا ثرى، ولتلاشى ما بينهما من عظمة سلطانه، وسبحات نوره. ولولا تثبيت الله -عزَّ وجل- لموسى -عليه السلام- لما أطاق سماع كلامه كما لم يطق الجبل مبادئ تجليه حيث صار دكًا**»[2].

والثانية: إشاعته وإذاعته، وربط المؤمنين به كافَّة بطريق التعبُّد وقراءته في الصلاة في كل يوم، وجعله حكمًا حكيمًا محكمًا. لا يمكن هجره أو تجاوزه أو الإعراض عنه، أو تجاهله بالكليَّة.

وبقدر ما هُوَ سهل وميسَّر للذكر فإنّ فيه أمثالا وقصصًا وتاريخًا وعلومًا كثيرة وأحكامًا وفقهًا، ونواحي أخرى لا يعقلها إلا العالمون، ولا يدرك جوانبها ومراميها إلاّ أهل الذكر.

ولقد بذل أسلافنا من علماء «**جيل التلقي**» والأجيال التي تلته جهودًا جبّارة في خدمته، واستجلاء معانيه، وجمع كل ما يتعلّق به، ولم تنضب معارفه وعلومه، ولم تكدّر ينابيعها الدلاء. بل إنَّ سائر العلوم والمعارف التي شادتها أجيال الأمَّة دارت حوله، وصدرت عنه، ووردت إليه، ولم يشبع منه العلماء ولم تنقض عجائبه، ولم يخلق من كثرة الردّ.

---

[1] راجع: محمد أبو القاسم، ١٣٥.

[2] محمد أبو القاسم.

ومن خصائص هذا القرآن التي اختص بها أنّه إضافة إلى مجده وشرفه وكرمه وعطائه فإنّه **[فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (٧٨) لا يَمَسُّهُ إِلا الْمُطَهَّرُونَ]** (الواقعة:٧٨-٧٩) قلوبًا ونفوسًا وعقولا إضافة إلى تحلِّيهم بالطهارات الحسيِّة. فعلى القارئ المتدبّر أن «**يحضر في قلبه عظمة المتكلم. وكما أنّ ظاهر جلد المصحف وورقه محروس عن ظاهر بشرة اللّامس إلا إذا كان متطّهّرًا: فباطن معناه -أيضًا- بحكم عزّه وجلاله محجوب عن باطن القلب الاّ إذا كان متطهّرًا عن كل رجس، ومستنيرًا بنور التعظيم والتوقير...** » وكان بعض الصالحين إذا نشر المصحف استقلته رعدة وقال: «**كلام ربي، كلام ربي**».

ويتكشّف مكنونه عن معانيه التي لا يحيط بها إلا منزِّله عبر العصور لتبقى العقول والقلوب والأفئدة مشدودة إليه، مرتبطة به لا تزيغ عنه إلى يوم الدين.

إنَّ «**تدبّر القرآن**» المجيد هُوَ الوسيلة الأساسيَّة لتلاوته «**حق تلاوته**»، وهي التلاوة التي تزيد إيمان المؤمن، وتخبت لها قلوب المؤمنين، وتجعل من القرآن مصدر شفاء وعلاج لما في الصدور، ولما في العقول والنفوس والقلوب، ولما في الأسرة والمجتمع والدول والأوطان. وإنّ فاعلية القرآن الكريم وتأثيره في تحقيق سائر جوانب الإصلاح لا تظهر ولا تتكشف بدون التدبُّر وفقًا لقواعده وأصوله القرآنيَّة ومقاصده النبويَّة.

إن تدبر القرآن ليس نافلة أو سنة يمارسها من شاء على سبيل التطوع والندب، بل هو فريضة محتمة، وواجب لازم، والعناية بالقرآن ينبغي أن تكون عناية بلفظه وبمعناه ثم باتباعه والعمل بما جاء فيه، وتيسير القرآن للذكر شامل لتيسير ألفاظه ومعانيه وإتباع قرآنه.

وهذا التيسير عام فيمن يؤمن به فيكون له شفاءً وفيمن لا يؤمن به فتقوم الحجة عليه به، وقوله تعالى [**وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا**](الأنعام:٢٥)، يتم بعد تكرار الإعراض منهم مرات، وتغليف (الدين) لقلوبهم.

والذين لا يتدبرون القرآن من المؤمنين قد تنغلق قلوبهم عن معاني القرآن واتباعه بعد أن يقطعوا علاقتهم بمعانيه، ويدمنوا عدم تدبره، وقراءته هذرا.فهناك تلازم لا ينفك ولا ينقطع بين القراءة والتدبر والجمع بين القراءتين، والإتباع الدقيق، والتطبيق السليم .

والمؤمنون الذين لا يفقهون القرآن يشابهون الكفار والمنافقين الذين وجه الله _تعالى_ لومه إليهم بقوله: **[فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا]** (النساء:٧٨)، وقد ذم سبحانه أولئك الذين لم يكن حظهم من سماع القرآن إلا سماع الصوت وحده دون فهم المعنى، واتباعه والعمل به، فقال : **[وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُون]**(البقرة: ١٧١).

[وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ](محمد:١٦)، فمن شغل المسلمين عن القرآن بسواه وصرفهم عن تدبر لمعانيه وفهم آياته فكأنه يريد لهم أن يلحقوا الكفار والمنافقين الذين لا يفقهون القرآن ولا يتدبرون آياته وجعلهم بمترلتهم. أما المؤمنون المتدبرون فهم الذين لا يريدون أن يشغلوا عباد الله بشيء عن كتابه. يقول مجاهد: **"**عرضت المصحف على ابن عباس من أوله إلى آخره ، أقف عند كل آية منه وأسأله عنها**"**[1]

ومن لطف الله أنه أبقى هذا القرآن مفتوحا لتدبر المتدبرين، فلم يغلقه على أفهام جيل واحد أو عصر محدد محصور، ولم يترك رسول الله __صلى الله عليه وآله وسلم__ تفسيرا بالمعاني الاصطلاحية المعروفة للتفسير ليبقى التدبر في القرآن شائعًا معروفصا دائما ينال بركته وفوائده كل من وفقه الله __تعالى__ للتدبر.

مناهج قراءة القرآن:

إنّ الإنسان يولد مفطورًا على القراءة والرغبة فيها بوسائل عديدة تناسب مراحل نموه؛ ولذلك فإنّ القرآن الكريم قد بدأ اتصاله برسول الله -صلى الله عليه وآله وسلّم- حيث أمر بالقراءة فكانت أول كلماته أمرًا بالقراءة **[اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ]** (العلق:١-٥).

إنّ القرآن الكريم نفسه قد هدى الناس إلى مناهج قراءته فكأنه أخذ بأيديهم، وقال لهم: إن شئتم أن تقرئوني فاقرؤوني بهذه المناهج أو بهذه الطرق. فهو قد أوضح بأنّه إذا قرئ عليهم القرآن في حالة الاستماع فعليهم أن ينصتوا بكل قوى وعيهم **[وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْءَانُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ]**

[1] انظر: ابن تيميه، مجموعة الرسائل والمسائل (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٣) ١٩٧/١. طبعة مصورة عن طبعة المنار للشيخ رشيد رضا.

(الأعراف:٢٠٤)، وأمّا في حالة القراءة فالقارئ نفسه مطلوب منه أن يقرأ بكل الشروط والمواصفات التي تقدمت الإشارة إليها، من التنزيل على القلب، وعدم الاقتصار على تحريك اللسان بكلماته، وعدم العجلة بقراءته، واستحضار أسماءه وصفاته ليستحضر عظمته، والتطهُّر المعنويّ التام والحسّيّ وغيرها. والمستمع بحاجة إلى أن ينصت إلى هذا القرآن بجوارحه كلها، لأنَّ للخطاب القرآنيّ طرقًا مختلفة تستدرج القارئ والسامع إلى التفكير، فهو ليس من الخطاب الَّذي يمكن للقارئ به أو للسامع أن يضع عوازل بينه وبين تأثيره إذا ما استقبله بقلبه ونزَّله على قلبه ولبّه واستقبله وهو مدرك لعظمته ولأهميَّته ولمزاياه، فنحن نرى أنَّ القرآن الكريم حين استمع إليه أو قرأه بعض المشركين قد تأثروا به!! فمن منَّا يجهل قصة إسلام عمر بعد قراءته لشيء من سورة طه؟ وقصة الوليد بن المغيرة وقصة الثلاثة الأخنس بن شريق، وأبو جهل وأبو سفيان، واستراقهم السمع إلى قراءة رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلّم- ولذلك فإنَّنا في الجانب السلبيّ نجد أنّ المشركين لمعرفتهم بذلك التأثير سارعوا إلى أن قالوا: **[لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْءَانِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ]** (فصِّلت:٢٦)، فقد دعوا إلى عدم السماع أصلا منذ البداية لأنّهم يعرفون من قوة الخطاب، وصدق تأثيره وتنوع مصادر قوته على القلب والنفس والفطرة الشيء الكثير، ولذلك فإنّهم لم يكونوا يستطيعون أن يعطوا فرصة للناس للاستماع إلى القرآن. في الوقت نفسه يقول البارئ سبحانه وتعالى لرسول الله -صلى الله عليه وآله وسلّم- **[وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ]** (التوبة:٦) فإذا سمع فلا بد أن يحدث الخطاب نوعًا من التأثير فيه ويشق طريقه إلى قلبه وعقله ووجدانه، بحيث يكون من الصعب جدًا أن يتلافى سامعه ذلك التأثير إذا كان مدركًا لقيمة هذا القرآن، وكيفيَّة التفاعل معه، وكيفيَّة استقباله قراءةً أو استماعًا.

إنّ بدء القرآن الكريم نزوله بأمرنا بالقراءة وجعل أول كلمة نزلت هي: «**اقرأ**» ليرشد الناس إلى ضرورة قراءته ويبيّن أنَّه قد يسَّره الله __ سبحانه وتعالى __ للقارئين فقال: **[وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ]** (القمر:١٧)، وبيَّن لنا جوانب سلبيَّة وإيجابيَّة **[إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ]** (الأنفال:٢)، **[الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ]** (الرعد:٢٨) وهذا كلُّه بالنسبة للعناصر المؤمنة بهذا القرآن والمدركة لعظمته وجلالة قدره. خلافًا لتلك القلوب الصدئة المغلقة التي أصابها صدأ أقفالها.

وقد نقل السيوطيّ[1] عن ابن عباس أنّه قال: «إنّ القرآن ذو شجون وفنون وظهور وبطون، لا تنقضي عجائبه، ولا تُبلَغ غايته، فمن أوغل فيه برفق نجا، ومن أوغل فيه بعنف هوى: أخبار وأمثال، وحلال وحرام، وناسخ ومنسوخ، ومحكم ومتشابه، وظهر وبطن، فظهره التلاوة وبطنه التأويل فجالسوا به العلماء وجانبوا السفهاء».

قال العلواني: إنّني أحمل كل ما يذكره المتقدمون عن وجود «**باطن أو بطن للقرآن**» على المكنون ودقائق المكنون التي تتكشَّف عبر العصور فقبل أن يتكشَّف العصر عنها يعتبرها من سبقهم من باطن القرآن وما هِيَ بباطن، بل هِيَ مكنون. وقد ضل كثير من الناس في ادعاء الباطن وقصره أو قصر العلم به على معلميهم وأئمتهم فوضعوا دلالات القرآن في غير مواضعها فضلوا وأضلوا. وعن هذا النوع من التفكير المنحرف نشأت الفرق الباطنيّة. والله أعلم.

وعندما نشرع في القراءة علينا ملاحظة ما يلي:

١. القراءة باسم الله وبمعيَّته، مستحضرين الأمر بالقراءتين: الأولى باسمه -تعالى- والثانية بمعيَّته -جل شأنه-، فأيّ شرف بعد هذا الشرف أعده الله للقارئ المتدبّر؟!

٢. القراءة المتأنيَّة المتريّثة التي لا تشوبها عجلة من أيّ نوع؛ فجمعه في القلب الَّذِي اجتمع لقرائته، وإقرار معانيه فيه رهن بعدم العجلة في قراءة وحيه.

٣. الارتقاء والعروج النفسيّ إلى عالم التلقي النبويّ واستحضار الإحساس والشعور بتلقي المتلقي الأول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ- وكيفيَّة ذلك التلقي، وانفصاله عليه الصلاة والسلام نفسيًّا وعقليًّا عن كل ما حوله أثناء التلقي.

٤. مداومة الصلاة به؛ لأنَّ العبد يكون أقرب إلى الله وهو في صلاته وسجوده، ولعل الصلاة وما تقتضيه من تركيز وخشوع وإخبات لله -تعالى- تساعد على حسن التدبُّر وعمقه.

٥. التزوّد بالعلم والمعرفة بكل أنواعها ليتمكن القارئ من صياغة أسئلته بدقة، والتوجه بها إلى القرآن المجيد.

---

[1] عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد ابن سابق الدين الخضيري السيوطي، جلال الدين(٨٤٩ - ٩١١ هـ): إمام حافظ مؤرخ أديب. له نحو ٦٠٠ مصنف، منها الكتاب الكبير، والرسالة الصغيرة. انظر: الزركلي، ٣٠١/٣.

٦. استحضار أسمائه وصفاته وأسماء سوره؛ فذلك يساعد على استحضار عظمته. وإدراك بعض مداخله، والوعي بمتطلّبات تدبّره وفهمه.

٧. العمل على رصد جميع مداخله بقدر المستطاع؛ إذ لن يحيط بمداخله آحاد أو أهل جيل واحد من الأجيال؛ وقد تقدم ذكر عدد منها. ونؤكد على ضرورة استحضار كل ما قد يفتح الله عليه به منها، وسيلمس المتدبّر فاعليّتها في إنارة سبيل التدبُّر له.

إنَّ في الآيات الخمسة الأولى نزولا من الكتاب الكريم -: أمر الله سبحانه وتعالى بقراءتين، كل قراءة لها خصائصها ومواصفاتها التي تستمد فيها معاني من صلة الموصول في قول الله سبحانه وتعالى: **[اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ]** (العلق: ١) فهي قراءةٌ يستعين الإنسان في ممارستها باسم الله الخالق، والخلق بالنسبة لهذا الإنسان المتلقي لهذا القول الثقيل، يبدأ من علق: **[خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ]** (العلق: ٢) وهي قطعة من الدم ثم تطورت، فلابد - إذن - من قراءة الخلق وفي مقدمته الإنسان و«**التدبُّر يجعل القارئ يدير عقله في الكون وفي الخلق - كلّه - وفي الإنسان ذاته الَّذِي استخلف فيه**». فذلك أمر صريح لقراءة الخلق وفهمه وتنبيهه إلى سننه وقوانينه إضافة إلى قراءة الوحي النازل عليه -صلى الله عليه وآله وسلّم- بذلك.

والقرآن الكريم الَّذِي بدأ بهذه الكلمات أمر بقراءتين، وفيه تنبيه إلى أنَّه سوف يتكامل تنزيلهُ ليصبح كتابًا كاملا تامًا مصدّقًا لما بين يديه ومهيمنًا عليه ومشتملا على تراث النبوات كلها، وحاملا لهدايات الأنبياء والمرسلين جميعًا. والقراءة الثانية مشار إليها في قوله تعالى: **[اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ]** (العلق: ٣-٥)، وذكر القلم هنا في صلة الموصول الَّذِي علم بالقلم علَّم الإنسان ما لم يعلم تربط بين قراءة القرآن الكريم والقلم وجميع القراءات والمعارف والمعلومات التي تراكمت بواسطته منذ بداية الخلق حتى بداية عصر التنزيل، فهي قراءة بالخلق وقراءة بتراكم المعرفة، وقراءة الوحي النازل، مما يشير إلى أنّ القرآن يعلِّم الرسول والبشريّة معه منذ البداية مبدأ «**الجمع بين القراءتين**» أو أكثر من قراءتين لكي يحقق أهدافه، أهداف التنزيل.

ثم تتالت وتتابعت أنواع القراءات بعد ذلك فهناك:

قراءة يعمد إلى القيام بها المتعبّدون الذين يبتغون ثواب الله سبحانه وتعالى بالقراءة، هذا الثواب الّذي وعد رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلّم- به في قوله: «**أتلوه فإن الله -سبحانه وتعالى- يأجركم بكل حرف عشرة لا أقول آلم حرف ولكن ألف حرف ولامٌ حرف وميمٌ حرف**»[1].

وهناك قراءة أخرى: وهي: قراءة الذين يريدون معرفة الحلال والحرام وشريعة القرآن الكريم فهي قراءة تتسم بالبحث عن الشريعة وعن الآيات التي تحمل تشريعات إلهيَّة من أمر ونهي ووصيّة وما إلى ذلك وقد تقدم ذكرنا لها مدخلا من مداخل «**التدبُّر**». وهي مدخل من مداخل القراءة وكان على الأصوليّين والفقهاء أن يعنوا بها، ويبنوا النظريات والقواعد الأصوليَّة والفقهيَّة على شريعة القرآن المجيد بحيث يكون القرآن المجيد هو المنشئ لها والكاشف عنها.

وهناك قراءة أولئك الذين يريدون أن يعرفوا تاريخ البشريّة وتطورها، ومسيرة البشريّة عبر التاريخ منذ بدء الخليقة وحتى أيام رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلّم- رغبةً بمعرفة ذلك التاريخ والاعتبار به، واستنباط دروسه وعبره من تلك القراءة. ولقصص القرآن الكريم مزاياها التي لا ينبغي لأحد أن يشوبها بالتراث الإسرائيليّ وغيره مما اختلط بكثير من الدخل والأكاذيب.

وهناك من يقرأ ليستمتع بدقة اللفظ وجمال الأسلوب وبراعة النظم وبلاغة أسلوب القرآن الكريم، ولكي يرى جوانب تحديه ووجوه إعجازه للبشريّة في أن تأتي بمثله. وهناك قراءةُ تحاول أن تطلع على قصص الأنبياء ومعرفة أقوامهم وأحداث أزمانهم ومضامين رسالاتهم.

وهناك قراءةٌ تحاول أن ترى ما إذا كان هذا القرآن يستشرف المستقبل ويعطي مؤشّرات له ويوضح مصير الإنسان ومصير البشريّة، إلى غير ذلك من قراءات كثيرة تكاد تشتمل على جوانب القرآن الكريم المختلفة.

---

[1] - الحديث رواه الترمذي في باب ما فيمن قرأ حرفاً من كتاب الله، برقم (٢٨٣٥)، من حديث عبد الله بن مسعود بلفظ «مَنْ قَرَأَ حَرْفاً مِنْ كِتَابِ اللهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا لاَ أَقُولُ الم حَرْفٌ وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلاَمٌ حَرْفٌ وَمِيمٌ حَرْفٌ» ، (١٠/١٥٣)، قال الترمذي: حديث حسن صحيح.وفي ربط الثواب بمستوى الحرف تنبيه إلى ضرورة التدبّر العميق الذي لا يغادر شيئًا من القرآن دون تدبر وتحليل وفهم.

وهناك أناس درجوا على إثارة أسئلة بعضها في التاريخ، وبعضها عن الحاضر والمستقبل، وسوى ذلك من أجل أن يترل الجواب عن أسئلتهم تلك وحيًا؛ بحيث يكون لديهم جواب تطمئن إليه النفوس، وينشرح له القلب، ويحسم الجدل. وهذه كانت في عصر التلقيّ خاصة.

وهذه القراءات المتعدِّدة المتنوِّعة هيَ التي بدأ يتكون الفكر الإسلاميُّ في بداياته بها وحولها، فالمسلمون قبل نزول القرآن فيهم كانوا أمَّة من أمم الأمِّيين. **[هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ]** (الجمعة: ٢). وبترول القرآن الَّذي تمنَّوا نزوله فيهم قبل أن يترل صاروا أهل كتاب **[أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ (١٥٦) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ]** (الأنعام: ١٥٦-١٥٧)

إنّ القرآن نزل على قلب رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلّم- ولذلك دلالات، فذلك يعني فيما يعنيه أنَّ التعامل الإنسانيَّ مع القرآن المجيد ينبغي أن يبدأ بالقلب، ومنه ينطلق، لا باللّسان، فاللّسان وإن كان هامًا في عمليَّة القراءة والترديد والحفظ وما إلى ذلك، لكن الأهم هنا هُوَ قراءة القلب، ومنه ينبغي أن ينطلق القارئ إلى اللّسان، لأنَّ هذا القرآن حينما نزل إنّما نزل على قلب مُحَمَّد -صلى الله عليه وآله وسلّم-

[نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ**]** (الشعراء: ١٩٣-١٩٤).

فالقرآن إذا أنزله المتدبّر على القلب هيّأ القلب والذهن والعقل واللُّبَّ للتفكّر والتدبُّر لينفعل كل ذلك بالقرآن، ويخبت القلب له، ويحسن بعد ذلك فهمه ويدرك مراده ويفقه أساليبه في الخطاب، ويبلغ المحور الأساس الَّذي يقرؤه، سواء أكان نجمًا أم سورة، وما إذا كان محورًا واحدًا أم متعدّدًا. وبتسجيل القرآن على لوح القلب ثم نقله إلى اللسان وغيره تتبيّن طبيعة العلاقات بين كلمات الآية والفاصلة التي ختمت بها، ثم علاقتها بما قبلها وما بعدها، وتتَّضح شبكات العلاقات بينها في داخل السورة لينطلق القارئ باتجاه معرفة علاقات السورة ببقيَّة سور الكتاب، ويحدّد بذلك موقعها منه، وبهذا نستطيع أن ننطلق بيسر وسهولة إلى عالم القرآن الرحيب من القلب الخاشع الضارع المتدبِّر.

وللتنزيل على القلب حكمة بالغة، فالتنزيل على القلب لا يستلزم معرفة «**القراءة**» كما يعرفها الناس، فالرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ- أميّ، مرسل إلى شعوب أميّة بقرآن من صفاته وخواصّه التنزل على القلوب. وفي ذلك حكمة بالغة؛ ولعل منها أنّ التدبّر يبدأ من القلب -أولا- وهو في قمة نشاطه، ومنه يفيض على الجوارح -كلّها- فيصبح بمثابة دم الحياة الَّذي يأخذ القلب منه نصيبه ثم يقوم بتوزيعه بعدالة على الأعضاء كلّها، ويمدّها بالحياة، وهكذا القرآن. **[يَاَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّه وَلِلرَّسُول إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ](الأنفال: ٢٤).**

[أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ](الأنعام: ١٢٢)

والأميُّون كلمة لها معنيان، المعنى الأول: الذين لا يقرئون ولا يكتبون، وهذا المعنى ليس مرادًا هنا، لأنّه من المعروف أنّ بيئة قريش بيئة تجاريَّة وكان فيها شيء من القراءة وشيء من الكتابة والحساب، شأنها شأن البيئات التجاريَّة في ذلك العصر وفي كل عصر، كما أنَّ هناك ما يدل على أنَّ العرب كانت لهم كتابات في تلك الفترة وفي تاريخهم، ويمكن الرجوع إلى بعض المصادر التي تعرضت لوضع الأعراب وعرب الجاهلية وقبائلهم المختلفة في عصر التنزيل، منها «**المفصل في أحوال العرب**» لابن يعيش[(١)]، و«**بلوغ الأرب في أحوال العرب**» للألوسي[(٢)]، و«**عصر النبي -صلى الله عليه وآله وسلّم- وبيئته قبل البعثة**» لمحمد عزة دروزة، إلى مصادر أخرى كثيرة تحدثت عن تلك الفترة، ونبّهت إلى وجود أعداد من القادرين على القراءة والكتابة. [(٣)]

[(١)] - ابن يعيش (٠٠٠ - ٧٩١هـ = ٠٠٠ - ١٣٨٩م) الحسن بن محمد بن الحسن بن سابق الدين، ابن يعيش الصنعاني: فقيه الزيديَّة في عصره. من أهل صنعاء، ولي قضاءها إلى أن مات، وله (التذكرة الفاخرة) فقه، في مجلدين، و((تعليق على اللمع للشيرازي)) و((مختصر الانتصار، للإمام يحيى)). انظر: الشوكاني، البدر الطالع. تحقيق: حسين بن عبد الله العمري (دمشق: دار الفكر، ١٩٩٩) ١/٢١٠.

[(٢)] - الآلوسي (١٢٧٣ - ١٣٤٢هـ = ١٨٥٧ - ١٩٢٤م) محمود شكري بن عبد الله بن شهاب الدين محمود الآلوسي الحسيني، أبو المعالي: مؤرخ، عالم بالأدب والدين، من الدعاة إلى الإصلاح، له (٥٢) مصنفاً، بين كتاب ورسالة، منها بلوغ الأرب في أحوال العرب، و(أخبار بغداد وما جاورها من القرى والبلاد، والمسك الاذفر في تراجم علماء القرن الثالث عشر. (انظر الزركلي، ٧/١٧٣.

[(٣)] والذين عيَّنهم رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلّم- كتابًا للوحي بلغ عددهم اثنين وستين كاتبًا. وراجع مصطفى الأعظمي، كُتَّاب النبيّ -صلى الله عليه وآله وسلّم.

المعني الثاني للأميّ أو الأميّين: هم الذين لم يتنزل عليهم كتاب من قبل وما جاءهم من نذير، وانقطعت الصلة أو لم تقم صلة مّا بينهم وبين الوحي الإلهيّ في وقت منظور. ولذلك جاء في التتريل: **[لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ]** (يس:٦)، والعرب وإن كان هناك تاريخ لبعض الأنبياء في جزيرتهم مثل هود وصالح، ولكن الشُقة بعدت بينهم وبين هؤلاء الأنبياء والمرسلين وأقوامهم بادوا وهلكوا، فلم يكن لرسالتهم ذكر قبل نزول القرآن في جزيرة العرب فعاد من سكن شبه الجزيرة بعدهم إلى أميَّتهم، ولذلك وصفوا بالغافلين، وفي بعض الآيات نفى الله -تبارك وتعالى- مجيء نبيّ أو رسول إليهم قبل النبيّ الأميّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ- فقال: **[أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ]** (السجدة:٣)، وقد نسيت كل تلك الرسالات، وفصلت بينهم وبينها دهور فكأنّهم لم يأهم نبيٌّ أو رسول من قبل، فهم من الشعوب الأميَّة بهذا المعنى؛ أي: الشعوب التي لم تتلَقَّ رسالة سماويَّة، ومن هنا تطلعت وتشوقت نفوسهم إلى رسالة تأتي إليهم، **[أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ]** (الأنعام:١٥٧)، يعني وهم ينظرون إلى اليهود والنصارى الكتابيّين من حولهم، كانوا يستشرفون ويتشوّفون إلى نزول شيء أو خطاب إلهيّ عليهم، ويأتيهم رسول إليهم مثل جيرانهم من أهل الكتاب.

ولذلك لما أنزل القرآن الكريم بدأت تتكون لديهم معه وبه أفكارهم ومعارفهم وعلومهم، مما جعل ابن عبد البر أو سواه يقولون: «**العلم قال الله قال رسوله**». فالعرب قبل نزول القرآن كأنّهم لم يمارسوا أيّة عمليّات تعليميَّة أو معرفيّة، ولذلك كان القرآن بالنسبة لهم هُوَ المصدر المنشئ لأفكارهم ولآرائهم ولتصوراتهم ولعلومهم ومصدرهم الأساسيّ للخروج من الجاهليَّة. وحوله تكونت تلك المعارف التي عرفت فيما بعد بـــ «**العلوم الإسلاميّة والفكر الإسلاميّ أو العلوم النقليَّة**». أو التي سميت في بعض المراحل بـــ «**العلوم الشرعيّة**».

فهذه العلوم تكونت في دوائر تلك القراءات المتعددّة والمقاربات المتنوعة للقرآن الكريم __ وإن لم تنبثق عنه __ حتى أصبحت مجموعة من المعارف التي بدأ تدوينها الرسميّ عام (١٤٣هـــ) على ما أكدَّ الذهبيّ في

«**تاريخ الإسلام**»، وتبعه بعد ذلك السيوطيّ في «**تاريخ الخلفاء**»[1]، وصار ذلك هُوَ تاريخ التدوين الرسميّ لتلك المعارف أو لذلك الفكر الَّذي انبثق عن قراءات المسلمين للقرآن الكريم وفقًا للسقوف المعرفيَّة السائدة التي تكونت تلك الفهوم والمعارف في إطارها، فهناك «**تفسير**»، و«**علم عقيدة أو توحيد**»، و«**علم فقه وأصول**»، و«**حديث**»، و«**علوم لغة عربيَّة**»، وهذه كلّها تقريبًا جرت مقاربتها أو عمليّة الوصول إليها بالقراءات أو بالمقاربات الإسلاميّة للقرآن الكريم، التي تنوعت وتعددت إلى ما ذكرنا وما لم نذكر من أنواع، إضافة إلى أنواعها القديمة منها والحديثة، وكلها ذات ارتباط وثيق بالقارئ نفسه. فللقارئ رؤيته الكليَّة وتصوره ودوافعه ودواعيه ومؤثّرات أخرى كثيرة من بيئته وثقافته وحضارته وقدراته ومداركه ونواياه وغاياته وسائر المؤثّرات الأخرى، وللقارئ دور كبير في تحديد نوعيَّة القراءة التي يقرأ القرآن الكريم بها والفهم والفقه الَّذي يصل إليه.

الزمكان والقراءة:

وكذلك فإنّ القراءة ذات علاقة وثيقة بالزمان وبالمكان، فالزمان الَّذي يقرأ القارئ القرآن فيه، والمكان الَّذي يقرأ القارئ القرآن فيه لكل منهما أثره في عمليّة القراءة، واختيار نوعها وكيفيَّتها، والحصول على النتائج المتوخاة منها، وهناك البعد الغيبيّ الإلهيُّ الَّذي يحيط بالقارئ وبالقراءة وبمنهجها، فإذا صادف القارئ لطفًا من الله -سبحانه وتعالى- ومَنَّ عليه بعنايته وتوفيقه فقد يوفق في قراءته وقد يصل بهذه القراءة إلى كثير من مكنون القرآن الكريم فيناله كرم القرآن وعطاؤه.

ولذلك فإنَّ الله -سبحانه وتعالى- قال: **[لا يَمَسُّهُ إِلا الْمُطَهَّرُونَ]** (الواقعة:٧٩) وهذه الآية تشير إلى عمليّة الوصول إلى المعنى المكنون، وليس اللمس الحسيّ كما ذهب إلى ذلك الفقهاء، وإنّما مسُّ ذلك المعنى القرآنيّ والوصول إليه، والله -سبحانه وتعالى- وضع كلمة «**المطهَّرون**» بصيغة اسم المفعول لكي ينبّه إلى أنَّ عمليّة التطهير تجرى من الخارج، يعني: أنَّ المطهَّر هُوَ من طهّره غيره، وذلك يعني أنَّ المطهَّرين هم أولئك الذين طهَّرهم الله -سبحانه وتعالى- وهيَّأ عقولهم وقلوبهم ووجدانهم للمس معاني القرآن الكريم والوصول إليها، ورسول الله -صلى الله عليه وآله وسلّم- يقول: «**إنَّ لربكم في دهركم لنفحات فتعرضوا**

[1] انظر السيوطي، تاريخ الخلفاء (القاهرة: د.ن.، ١٩٥٢) ٢٣٠. وراجع ايضا للذهبي، تاريخ الإسلام، الطبقة الخامسة عشر، أحداث سنة ١٤٣هـ.

لها»[1]، فحينما يقرأ القارئ القرآن الكريم متعرّضًا لنفحات الله فإن القرآن كريم والله أكرم وسيمده الله __ تعالى __ من عطائه.

---

[1] - روى الحديث أنس بن مالك بلفظ: «تعلّموا الخير دهركم وتعرّضوا لنفحات من رحمته» أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٩٠/٣). وروى عنه - أيضًا - بلفظ «اطلبوا الخير دهركم، وتعرّضوا لنفحات رحمة الله -عز وجل- فإنّ لله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده، وسلوا الله أن يستر عوراتكم، وأن يؤمن روعاتكم» وأخرجه البغويّ في شرح السنّة (١٥٥/٣) وابن عساكر في تاريخ دمشق (١٢٣/٢٤). وباللفظ الذي أوردته في المتن ورد عن أبي هريرة وخرّجه العراقيّ في تخريج أحاديث الإحياء (٢٥١/١) وقال: ضعيف. وورد أيضًا في مجمع الزوائد (٢٣٤/١٠). وأخرجه الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة رقم (٢١/٩٨) وفي ضعيف الجامع (٩٠٢)، فالحديث ضعيف.

هذا: وممن ذهب إلى نحو ما ذهبنا اليه في معنى «المطهّرون» الراغب الاصفهاني حيث قال: «إنّه لا يبلغ حقائق معرفته إلاّ من طهّر نفسه، ونقى قلبه من درن الفساد». وذلك في مفردات القرآن.

وقد قسم الراغب «الطهارة» إلى نوعين: حسّيّة ومعنويّة.

ونبّه إلى أنّ تطهير القلب يجعله مهيّئًا لدخول السكينة المذكورة في قوله تعالى: [هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا] (الفتح:٤) فقد جاء ذكر «لا يمسّه إلا المطهّرون» بعد قوله تعالى: [فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (٧٨) لا يَمَسُّهُ إِلا الْمُطَهَّرُونَ] (الواقعة:٧٥-٧٩) فالمحور الأساسيّ في السورة المكيَّة التأكيد على وقوع يوم القيامة، ووصف لما يحدث فيه، وبيان صفة أهل الجنَّة ونعيمهم، وأهل النار وتكذيبهم بالبعث وكيف سيرونه عين اليقين. ثم يبيِّن لهم أنّه ما زالت الفرصة بين أيديهم متاحة إذا آمنوا بالمصدر الذي بشرهم وأنذرهم ألا وهو القرآن؛ لأنّهم لو فعلوا لتلافوا بذلك أهوال ذلك اليوم، ولكانوا بين أصحاب الميمنة، أو أصحاب اليمين أو المقرّبين. فيقسم الله -تبارك وتعالى- وهو جل شأنه في غنى تام عن أيّ قسم لتأكيد صحة ما يقول أو لإثباته، لو أنّ هؤلاء كانوا يعرفونه -سبحانه- حق المعرفة. فكأنّه حين يقسم يريد أن يؤكد مدى غرورهم وضلالهم واستكبارهم عن الهدى فيقول: «فلا أقسم بمواقع النجوم» أي لا يحتاج أمر الايمان والتصديق بالبعث إلى قسم، لكنّ الجليل -تعالى- يقسم بمواقع النجوم مع نفي الحاجة إلى تاكيد ما أنذرهم القرآن به وبشّرهم. فكلمة «لا» ليست زائدة؛ إذ لا زيادة في القرآن لأيّ حرف بل نافية للحاجة إلى القسم لو أنّ القوم قدروا الله حق قدره، وعرفوا للقرآن مكانته. وقد وصفت هذه الآيات القرآن «بالكرم» في عطائه، وبيانه وشفائه لما في الصدور وهدايته. ووصفه بأنّه «مكنون» والمكنون وصف تكريم للقرآن المجيد مشتق من «الأكتنان» بمعنى «الاستتار» فهو في «كنّ» وستر لا يخترقه بشر بحيث يحيط بكل حقائقه، ولكن هناك سبيلاً سالكًا كمسِّه بلطف ومسّ المكنون من معانيه التي تتكشف عبر العصور يقوم على توفيق من الله -تعالى- واستعداد من الانسان بالتطهّر، والتعرّض لتطهير الله لقلوبهم، وبذلك تستعد القلوب وتتهيأ لاستقبال حقائق التنزيل كما تستقبل «السكينه» النازلة من الله -تعالى- والله أعلم.

أمّا «مواقع النجوم» التي ذكر الله -تعالى- أنّها «قسم عظيم» مواقع جمع «موقع» وهو مصدر ميميّ، لعل المراد بها مواقعها في السماء ومحال وقوعها ووجودها ثوابت أو سيّارات، فإنّها محدّدة تحديدًا دقيقًا من الله تعالى وكذلك مواقع غروبها وسيرها. وما دام الكلام عن القرآن وفيه فإنّ في ذكر مواقع النجوم إشارة إلى «مواقع نجوم القرآن» في الكون القرآنيّ أي: «مجموعات الآيات المنزلة» فيكون قسمًا بنجوم القرآن ومواقعها، وصدق كل ما فيها. وهو مرويٌّ عن ابن عباس وعكرمة. كما في تفسير الطبري والرازي والتنوير.

و«المطهّرون» وإن صرفها جمهرة المفسّرين إلى الملائكة، لكنّ القرآن لم ينزل لهداية الملائكة بل لهداية البشر الذين ينقسمون بمقتضى مواقفهم منه إلى أصحاب يمين وأصحاب شمال. وقد يستأنس لما ذهب اليه جمهور المفسّرين، ونصره الامام مالك في الموطأ بقوله تعالى: [كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (١٢) فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ] (عبس:١١-١٦) لكن السياق في الواقعة مسوق إلى التوكيد على علو شأن القرآن= =الذي لا يضيره أن يعمى عن هدايته أولئك المشركون فهو عليهم عمى ولا يزيدهم وهم في ظلمهم وضلالهم الا خسارًا. لأن الذين يستطيعون الوقوف على شواطئه، ومسّ شيء من مكنونه هم أولئك «المطهّرون» وقد قال جل شأنه: [يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا] (الأحزاب:٣٣)

وأمّا التعرض لنفحات الله -سبحانه وتعالى- فإنّ استفادة الإنسان بقراءته سوف تكون أكثر بكثير من ذلك الَّذي حرم هذه الجوانب أو لم يصادف تلك النفحات.

والقرآن الكريم- نفسه- في الوقت الَّذي وصفه الله -سبحانه وتعالى- بأنَّه هدًى لقوم ونور وبيان لأقوام، وصفه كذلك بأنَّه لا يزيد الظالمين إلا خسارًا **[وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلا خَسَارًا]** (الإسراء: ٨٢)، فهذا النصُّ القرآنيّ يوضّح أنّ القرآن المجيد يتنوُّع دوره في التأثير بتنوع القارئ واستعدادات التلقي لديه، وما يتّصف به وما يتعرض له من نفحات الله سبحانه وتعالى.

* * *

حضارة الكلمة وحضارة الصورة:

أمر آخر لا بد للقارئ أن يتنبه له ألا وهو أنَّ هذا القرآن كلمات الله، فيحتاج القارئ أن يدرك أنَّ القرآن كلام الله يقوم على الكلمة الإلهيَّة، فهو رسالات الله -سبحانه وتعالى- وكلامه، وأنَّ الحضارة التي أقامها القرآن الكريم هيَ «**حضارة كلمة**» وهي مقابل «**حضارة الصورة والتمثال والصنم**»، والكلمة يستحيل توثينها، وإن وثَّنها البعض، ولكن لا يعني هذا –أيضًا- أن يتعامل معها تعاملا عاديًا كأيَّة كلمة أخرى، وكأنَّها كلمة إنسانيَّة، فهذه الكلمة الموجودة في القراءة كلمة إلهِّية تقابل الكلمات الإلهيّة الموجودة في الكون، والتي بها تشيَّأ الكون حين قال الله سبحانه وتعالى: **[إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ]** (النحل: ٤٠)، وحضارة الكلمة غير حضارة الصورة أو المثال فلحضارة الكلمة خصائصها، وللعقل المنتمي إلى حضارة الكلمة سمات وصفات لا بد للقارئ أن يكون على وعي بها ليحسن التعامل مع تلك الكلمات.

وأمّا آيات «عبس» فهي لبيان عظم شأن القرآن من ناحية، وأن قادة قريش الذين جاؤوا اليك، وانشغلت بهم إن شاؤا معرفة شيء من آيات الكتاب فذلك متاح لهم إذا هيأوا أنفسهم وقلوبهم لذلك. والله اعلم.

وقد يثير البعض مسألة «الطهارة من الإدثين» ووجوبها قبل مسّ المصحف، ولهذه المسألة مواضع بحثها من الكتب الفقهيَّة. وعلى الجملة فإنّ تكريم القرآن ومكانته تقتضي إضافة إلى الطهارة المعنويّة الطهارة الحسيَّة عند حمله ولمسه. ولضرورات التعليم والتعلّم أحكامها.

وأمّا «بمسّه» فأكثر استعمال القرآن لهذه المادة في كل ما ينال الانسان من أذى وعذاب، وكنّى به عن الجنون: [يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ] (البقرة: ٢٧٥). وفي الأذى والعذاب: [لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ] (البقرة: ٨٠)، [مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ] (البقرة: ٢١٤). «مسّكم الضر...» «مسَّني الضر...» «ضراء مستهم إذا لهم مكر...» «رب إنّي مسني الضر».

وكلمات القرآن الكريم ليست كأيَّة كلمات عربيَّة وإنّما هيَ كلمات إلهيَّة، وذلك يجعلها ذات مستوى عال بحيث ترتقي إلى مستوى المفاهيم، وذلك للفرق الكبير بين الاستعمال الإلهيّ للّغة والاستعمال البشريّ لها، فالاستعمال البشريّ للّغة لا يحمل من ثراء المعاني ما يحمله الاستعمال الإلهيّ، فالله - تعالى - قد أحاط بكل شيء علما، وفصّل هذا الكتاب على علمه سبحانه وتعالى، فالكلمة القرآنيّة –إذًا - كلمة ترتقي لمستوى المفهوم، والمفاهيم دعائم تقوم عليها الحقول المعرفيّة، والأنساق الثقافيَّة والحضاريّة، وعلى القارئ أن يدرك الفرق الكبير بين الاستعمال الإلهيّ للكلمة والاستعمال البشريّ لها، وبالتالي فأولى المصادر بأن يكون مصدرًا للتعريف بكلمات القرآن الكريم هُوَ القرآن نفسه الَّذي يجعل من الكلمة الواحدة ما يشبه غرفة أو دعامة في بناء أو لبنة في بناء منهاجيّ كامل تعطي فائدتها منفردة ومستقلة، وفي الوقت نفسه تعطي جملة من الفوائد وهي في داخل البناء، فوعي القارئ بهذا الأمر وعي له أهميّته قبل القراءة وبعدها، وتبرز أهميّته بعد القراءة في وجوه عديدة تبدو في عملية الفهم والتعامل مع مفردات القرآن الكريم بوصفها مفاهيم، ومع القرآن الكريم في «**وحدته البنائيّة وفي كليّاته ومقاصده وغاياته**».

وأمَّا الصورة فلها تناول آخر ولها طرائق في الدلالة والفهم، ولها آثار في التكوين العقليّ للمنتمي لحضارة الصورة، كما أنّ لها آثارها في التوجّه النفسيّ وهي تختلف تمامًا عن توجّه المنتمي لحضارة الكلمة.

امتياز لسان القرآن وتفوُّقه[1]:

نقطة أخرى مما أشرنا إليه في مواضع كثيرة ونؤكد عليه: أنّه لا بد للمتدبّر من الإيمان بتميُّز لسان القرآن جملة عن أيّ لسان آخر بما فيه اللّسان العربيّ، ويتمتع هذا اللّسان «**لسان القرآن**» بمزايا مختلفة؛ فلسان القرآن الكريم من الصعب جدًا إخضاعه لأحكام الألسنيَّات وخاصّةً المعاصرة التي تنطلق من عمليّات دراسة النصوص وتفكيكها وإعادتها إلى كلمات مفككة، ثم تحليلها. وعدم ملاحظة سائر الجوانب التي أشرنا إليها من مزايا كلمات القرآن الكريم ونظمه وأسلوبه وتحديه وإعجازه وأثر الاستعمال الإلهيّ للّغة والفرق بينه وبين الاستعمال البشريّ لها يجعل عمليَّة «**التدبُّر**» مهما بذل فيها من جهد عمليّة منقوصة!!.

[1] لنا رسالة لطيفة هي الرسالة الرابعة من رسائل هذه السلسلة عالجنا فيها بشيء من التفصيل «لسان القرآن» فاحرص على الاطلاع عليها. وقد طبعتها مكتبة الشروق الدولية، بالقاهرة، ط أولى ٢٠٠٦.

وهذه الألسنيَّات يصعب أن ترتقي إلى هذا المستوى، ويصعب أن تتعامل مع النصّ القرآنيّ التعامل الّلائق به، والقادر على العروج بالقارئ إلى عليائه. وقد تكون الألسنيَّات القديمة والدراسات التي قام بها البلاغيّون المسلمون مثل «**عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز، والزمخشري في أساس البلاغة، وابن جنّي في الخصائص، وسيبويه في الكتاب والخليل في العين**» أقرب بكثير إلى التعامل مع القرآن المجيد من الألسنيَّات المعاصرة؛ لأنَّ تلك الدراسات وجدت وولدت في البيئة المسلمة وبتأثير قرآنيّ، وكان من الممكن لو أنَّ المسلمين تجاوزوا تخلُّفهم الَّذِي هم فيه أن يبنوا على تلك الدراسات ويطوّروها؛ ليكون لديهم «**علم ألسنيَّات**» ملائمًا للتعامل مع القرآن الكريم بمزاياه وخصائصه كلّها، وأن يضيفوا على هذه الألسنيَّات وعلومها ومنهاجها معارف ومناهج أخرى يمكن أن تجعل اللسانيَّات الإسلاميّة والعربيَّة لسانيَّات متميّزة صالحة لخدمة «**النصّ القرآنيّ**» ولحمايته من تطفُّل الذين لا يؤمنون به ولا يعرفون مزاياه، وخصائصه الكثيرة، ولا يستطيعون أن يتذوقوه ولا أن يلموا بكثير من الأبعاد الأساسيّة لمناهج قراءته. وأمّا المسلمون فقد كان من الممكن أن يغنوا أنفسهم عن التطفُّل على موائد علماء «**الألسنيَّات والبحث الفنولولوجي**» وما إلى ذلك، وربّما نأوا بالكتاب عن أن يتعرض لما تعرض له وما زال يتعرض له من تلك الدراسات الفجة التي لم تستطع أن تخدمه ولا أن تقدم له الكثير.

التدبر وأسماء القرآن:

إنّ لأسماء القرآن وصفاته أثرها في حسن القراءة والفهم والتدبُّر ولها أهميَّة كبيرة في تهيئة قوى الوعي الإنسانيّ لاستقبال معانيه، بل لعلها من أهم الأمور التي تساعد القارئ على معرفة القرآن معرفةً جيدة وبناء ألفة معه، ومعرفة أسماء القرآن الكريم إذا تدبّر القارئ في معانيها لا تنفصم عن صفاته بدلالتها، ولا تتوقف عن التأثير فيه.

وللقرآن الكريم ما يزيد عن (٣٤) اسمًا وله مجموعةٌ من الصفات أحصاها أو أحصى بعضها الإمام الرازي وآخرون من علماء القرآن الكريم. ونقلناها عنهم وزدنا على ما جمعوه منها ونشرناه في بعض دراساتنا.

إن هذه الأسماء والصفات من شأنها أن تزيد في فهم القارئ وفي وعيه بأهمّيّة القرآن، وإدراك عظمته وبالتالي تهيئة النفس والعقل والقلب والوجدان لاستقبال محكم آياته قراءة أو استماعًا استقبالا يليق بعظمته،

ويساعد على حسن تدبّره. وهي لا تدل على وجود «**الترادف**» في القرآن؛ فالترادف يتحقق بوجود ألفاظ متعددة تطلق على معنى واحد. وهنا كل اسم وإن أريد به القرآن الكريم لكن ذلك كان من حيثيَّة مختلفة، فليس هناك اسمان يتفقان في دلالة «**مطابقة تامَّة**» على مدلول واحد.

* * *

الاستماع للقرآن وآدابه:

والقرآن الكريم قد اشتمل على آيات كريمة كثيرة تبين لنا طرائق استماع المؤمنين للقرآن الكريم وتلاوتهم له، وطرائق استعمال غيرهم واستقبالهم له فهو- القرآن الكريم- شفاء لما في الصدور وهدى ورحمة، وهو «**موعظة للمتقين**»، وهو «**بشرىً وذكرى**»، و«**نذارة**» في الوقت نفسه، وحين يدرك القارئ ذلك فلا يمكن أن يتجاهل ضرورة التدبُّر، ولا أن يطمع في أن يصل بدونه إلى المستوى الَّذي نبَّه القرآن الكريم إلى ضرورة الوصول إليه بقارئه وبسامعه وبتاليه، فالتلاوة يجب أن تكون «**حق التلاوة**» لا يكون فيها ليًّا بألسنتهم، ولا يكون فيها طعن في الدين، ولا يكون فيها فسادٌ في النيّة إلى غير ذلك من آداب ووصايا قد اشتمل القرآن الكريم عليها ليبيّن لنا المنهج الَّذي نقاربه به ونستهدي بنوره.

وهذه كلها تحتاج إلى نوع من الاستقصاء في آيات القرآن الكريم لنتبيَّن هذه الآيات ونضعها في نوع من التراتب والتلازم يسمح للقارئ بالوصول إلى ما يتمنَّ الوصول إليه بقراءته للقرآن الكريم وتدبّره، وتكوين العقول به، فقال سبحانه وتعالى: **[وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلا]** (الإسراء:١٠٦)، **[كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلا]** (الفرقان:٣٢)، وسمى رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلّم- بعض القراءات بـــ «**قراءة الهذرمة**» وسمى القرآن الكريم بعض القراءات بـــ «**قراءة العضين**» في قوله -تعالى- **[الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْءَانَ عِضِينَ]** (الحجر:٩١)، أو قرأوه باعتباره أعضاء مجزأة مقطّعة مفرّقة عن بعضها فكل هذه الأمور حينما نضمها إلى بعضها سوف نخرج بمنهج دقيق لقراءة القرآن، يساعدنا على تجنّب سلبيّات القراءة، أو القراءة السلبيّة. وهو منهج قد رسمه القرآن نفسه ليهدينا به إلى المنهج الَّذي علينا أن نتبعه في قراءته وفي الاستماع إليه، وفيما سبق قدمنا أهم معالمه.

* * *

التدبُّر وتنزيل القرآن على القلوب:

ولعل من أهم النقاط التي ينبغي أن لا نمل تكرارها والتوكيد عليها في هذا المجال - مجال قراءة القرآن الكريم ومنهج الاستماع إليه - والنظر إليها على أنّها نقطة أولى هي: التنزيل على القلب. اتباعًا وتأسّيًا برسول الله -صلى الله عليه وآله وسلّم- في نزول القرآن على قلبه الطاهر النقيّ السليم. ونحن نعلم صعوبة ذلك فقد كابدنا وما نزال نكابد للتدرّب على ذلك. ولعل الله -تبارك وتعالى- يساعدنا على السعادة ببلوغ هذه الغاية إن شاء الله تعالى. وقد نبهّنا إلى الحكمة في تنزيله على القلب وهي حكمة بالغة.

إنَّ القرآن الكريم ليس كتابًا عاديًا ينزل على السمع، أو يوضع أمام العين لكي يقلب الإنسان الطرف في كلماته، أو يتصفحه تصفحًا، أو يستمع إليه بقلب لاه أو ساه لا، لا بد أن ينزّل على القلب قبل أن ينزّل على اللّسان وقبل أن ينزّل على الأذن في حالة الاستماع قال تعالى: **[هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ]** (الشعراء:٢٢١-٢٢٢)، **[قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ]** (النحل:١٠٢)، فالتنزيل على القلب —إذًا- هُوَ القراءة الدقيقة السليمة التي تؤدي إلى الثمرات التي ورد القرآن المجيد بها. والتنزيل على القلب ليس بالأمر السهل، بل هُوَ أمر يحتاج إلى كثير من الاستعداد والتدرب والمكابدة مع التوفيق الإلهيّ. فليس كل كلام يمكن للإنسان أن ينزّله على قلبه، ولذلك نهى رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلّم- أن يحرك به لسانه في قوله تعالى: **[لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ]** (القيامة:١٦-١٧) وأمر في الوقت نفسه بأن يعلن أنَّ تنزيل هذا القرآن كان على القلب. **[نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ]** (الشعراء:١٩٣-١٩٤) **[قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ]** (البقرة:٩٧).

فالقارئ للقرآن الكريم محتاج أن ينزِّل القرآن على قلبه، والتنزيل على القلب يستلزم أولا: تطهير القلب وتنقيته من كل ما قد يحول بين القرآن وبين النزول على قلب ممهَّد ليِّن مهيأ لنزوله عليه، مستعد لذلك تمام الاستعداد إذا نزل عليه زاده إيمانًا، وإخباتًا وخشوعًا وألانَ ذلك القلب وأسرجه وانعكس ذلك منه على الجلد قال تعالى: **[تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ]** (الزُّمر:٢٣)، وفي الوقت نفسه لا بد من تزكية القلب وإعداده وجلائه، فكما تمهَّد الأرض لإنزال طائرة عليها أو إقامة بناء لا بد لك من تمهيد

القلب لكي تنزّل عليه آيات القرآن الكريم، وتوجد بين القلب وبين الكتاب الكريم رابطةً وثيقة لتذكر منزّله والمتكلّم به سبحانه وتعالى، وتذكر متلقيه الأول -صلى الله عليه وآله وسلّم- الَّذِي تلقاه وحمله إلى البشريّة كافَّة؛ ليخرجها من الظلمات إلى النور.

ومع معرفة أسمائه وصفاته لكي يستصحب القارئ ذلك -كلّه- وهو يقرأ آيات القرآن الكريم ويتلوه لا بد له من أن يدرك تفرُّد نظمه «**نظم القرآن**» وتفرُّد أسلوبه وكيف تحدّى البشريّة كلها، وكيف عجزت البشريّة- كلَّها- بعد التطلُّع والمحاولة عن الاستجابة لذلك التحدِّي. كما أنَّ هذا القرآن اختص بضرورة أخذه بقوة وتلقيه بقلب منشرح وعقل منفتح وعزيمة صادقة، وتصميم على حسن التلقي، وعزم على التطبيق والتنفيذ.

يضاف إلى ذلك أنّه لا بد أن يحدّد هذا القارئ هدفه من القراءة بدقة تامَّة وهو ما نسميه «**بالنيّة**» ففي الحديث «**إنّما الأعمال بالنيات**»[1]، والقراءة عمل فلا بد من بناء النيّة، والتعرّض للتطهير الإلهيّ، فلعلّ القارئ يكون واحدًا من أولئك المطهَّرين الذين يستطيعون العروج إلى العلياء بمسّ معاني القرآن الكريم. ويحتاج القارئ بعد ذلك إلى تحديد المقاييس القرآنيّة المناسبة؛ لكي يتمكن من فحص نتائج القراءة وليتبيَّن آثارها هذه. وذلك بالنظر إلى أحوال قلبه وقوى وعيه قبل القراءة وأثناءها وبعدها. والنظر في آثار تلك القراءة فيه. والله أعلم.

لعله قد تبيَّن لنا مما تقدم المراد بـــ «**نوعيّة القراءة**» التي علينا أن نمارسها حين نقرأ القرآن الكريم، ونقاربه خاصّة في هذه المرحلة الحرجة من تاريخنا وهي المرحلة التي لا نجد فيها بين أيدينا إلا كتاب الله القادر على إخراجنا من الحيرة، وتخليصنا من هذه الفتن المتراكبة وظلمات القلق والاضطراب. وأعباء إعادة بناء هذه الأمَّة به.

وأودّ هنا الإشارة أو الإجابة عن تساؤل، وهو هل استطاعت أمّتنا عبر تاريخها وباستعمالها لمختلف العلوم والمعارف التي وضعتها من أجل استجلاء معاني القرآن؟ هل استطاعت أن تحقق ذلك وأن تقدم القرآن الكريم للبشريّة باعتباره كتاب استخلاف ومنشئ عمران، ودليل استقامة وهداية في هذا الوجود،

[1] - الحديث رواه البخاري باب بدء الوحي برقم ١، (١/ ٣)، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وقد سبق أن ذكرنا هذا الأمر وأكدنا عليه ونزيده توكيدًا هنا؛ لأنّه من الواجبات التي لم يذكرها الفقهاء فلم تأخذ لدى الناس حظها من الاهتمام.

وكتابًا كونيّا معادلا للوجود الكونيّ وحركته، قادرًا على الاستيعاب والتجاوز أم أنّها لم تحقق ذلك؟! وفي كلا الحالين لا بد لنا من التساؤل بـ«**كيف**» و«**لِمَ**» و«**لماذا**»؟

لا شك أنَّ أمّتنا قد قدمت خدمات كثيرة في كتابة القرآن وقراءته وتجويده وزخرفة أوراقه وفي طرق تناقله وفي إحصاء كثير من الأمور الدقيقة الدائرة حوله، ولكنَّ من المؤسف أن أقول إنَّها لم تستطع على الرغم من إعداد وكتابة ما يقرب من مليون دراسة وكتاب ورسالة وتفسير كليّ أو جزئيّ ما بين مطبوع ومخطوط في قضايا القرآن وتاريخه وجمعه وعلومه المختلفة لم تستطع رغم ذلك - كلّه - أن تقدم لنا وللبشريّة القرآن كما ينبغي أن يقدم باعتباره كتاب خلافة ودليل عمران ومصدر تحقيق للشهود الحضاريّ في هذه الحياة الدنيا، ومعالجة لمشكلات البشريّة، وإخراجها من الظلمات إلى النور.

ومن المؤسف أنّ دراساتنا فيما يتعلّق بـــ «**علوم القرآن**» قد أظهرت أنّ هذه المعارف قد تعرضت في مراحل مختلفة لإصابات عديدة سنأتي على تفصيلها في هذه السلسلة إن شاء الله. وعن هذه العلوم والمعارف نقلت بعض معارفنا الأخرى، مثل «**أصول الفقه**»: مجموعة من الإصابات الخطيرة عندما تقبَّلت القول بأنّ في القرآن نسخًا وسودت في ذلك صفحات جعلت الناس يتداولون إشكاليّة «**الناسخ والمنسوخ**» بوصفه علمًا من علوم القرآن وما هُوَ بعلم. ويفسّرون «**المحكم والمتشابه**» تفسيرًا يضيف الغموض والإبهام إلى كثير من آيات الكتاب الكريم ويجعل بعض القارئين في حالة إعراض وعزوف عن التدبُّر فيها، وكيف يقبل على تدبُّرها من يؤمن بأنّه لن يستطيع بلوغ فهمها مهما فعل. [١]

مفاهيم تدور حول مفهوم التدبُّر

إذا كان التدبُّر مفهومًا محوريًّا فإنّ هناك مجموعة من المفاهيم الإطاريَّة تدور حول محور مفهوم «**التدبُّر**» فتزيده وضوحًا، وتساعد في الكشف عن آليّاته ووسائله. وهذه المفاهيم لا يقلّل من أهميَّتها أن تكون محاور تدور حول محور «**التدبُّر**» حين يكون هُوَ المقصود بالتناول. وحين تذكر في سياق آخر تبدو هامَّة ومحوريَّة في ذلك السياق. منها:

---

[١] وقد كانت الرسالة الأولى في هذه السلسلة المباركة في أزمة الانسانية ودور القرآن في الخلاص منها، (القاهرة: دار الشروق للنشر، ٢٠٠٦).

«**الفكر والتفكّر، والنظر، والبصيرة، والتأمّل والمعرفة**» وسنعرّف بهذه المفاهيم تعريفًا موجزًا بقدر ما يحقق توضيح «**مفهوم التدبُّر**» ويبرز حقيقته.

مفهوم «الفكر»:

في كتاب الله لم ترد مادة فكر (ف ك ر) بصيغة الاسم، أي: لا نجد في القرآن الكريم «**فِكْر**» اسمًا أو مصدرًا، ولا نجدها معرَّفة بلام التعريف ولا منكرة، فقد وردت في القرآن الكريم في عشرين موضعًا بصيغة الماضي - فعل ماضٍ - وبصيغة المضارع. «**إنَّه فكّر وقدّر**» «**لعلهم يتفكرون**»، «**أفلا تتفكرون**» وفي صيغة المخاطب وفي صيغة الغائب. والفعل: ما دل على حدث وذات، فحينما يقال: «**ضرب**» فإنها تدل على الحدث نفسه وهو الضرب، وتدل على أنَّ هناك إنسانًا ضاربًا. فحينما نقول «**فكّر أو يفكّر أو تفكّر**» فهي كلمة تدل على حدث هُوَ «**الفكر**»، وتدل على الذات الفاعلة لهذا الحدث التي نسميها «**بالمفكر**». فحينما تستخدم في القرآن الكريم بهذه الطريقة فكأن الله -سبحانه وتعالى- يريد أن ينبّهنا إلى أنّ هذا العمل الذهنيّ الَّذي يسمى «**بالفكر**» إنّما هُوَ عمل مرتبط بالذات، فلا يمكن أن يتجرد الفكر عن المفكر. فكلما وجد فكر وجد مفكر، وأنَّ الفكر لا ينبغي أن يكون شيئًا فيما لا طائل تحته وفيما لا عمل أو حركة في هذا الكون تبنى عليه.

إنَّ هذا الَّذي نسميه «**بالفكر**» هُوَ خاصَّة من خواص الإنسان، لا يشترك معه فيه أيّ مخلوق آخر، ولا يطلق «**الفكر**» إلا على العمليَّات الذهنيَّة التي يقوم بها الإنسان، وأمَّا الحيوانات فالمظاهر التي تشبه عمليّة الفكر لدى الإنسان لا تسمى «**بفكر**»، وإنما تسمى «**بالتوجيه الغريزيّ**». والمناطقة الأقدمون يعرّفون الإنسان بأنّه «**حيوان ناطق**»، أي مفكر. أما بقيّة الحيوانات فلها «**التوجيه الغريزيّ**» ونحوه، وهو الَّذي يقابل الفكر والذهن والقوى الواعية الموجّهة عندنا. وقد اهتم علماؤنا بتفسير «**الفكر**» وتعريفه وبيان حقيقته ومعناه، وإن أهمله أصحابنا «**الأشاعرة**» إلى حدٍ كبير مع كثرة حديثهم عنه.

وللكلام عن «**حقيقة الفكر**» وبيان ما يدخل تحته وجدت أنَّ كثيرًا من علمائنا الأقدمين من القرن الثالث الهجريّ تكلَّموا في هذا الأمر، وتناولوه بالشرح والبيان، وعرَّفوا هذا المفهوم وبيّنوا مواصفاته وشروطه. نجد أحيانًا بيان وتعريف هذا المصطلح في كتب التصوف، ونجده أحيانًا في كتب اللغة، وأحيانًا

أخرى في كتب الفلسفة، وفي كتب علم الكلام، وفي كتب الأصوليّين. وفي موسوعات هذه العلوم نجد كلامًا كثيرًا عن الفكر ومرادفاته وشروطه وتنوعه. وهذه المصادر تفيد بأنَّ «**الفكر**» اسم لعمليّة تردد القوى العاقلة المفكرة في الإنسان، سواء أكان قلبًا أو نفسًا أو ذهنًا بالنظر والتدبُّر، لطلب المعاني المجهولة من الأمور المعلومة، أو الوصول إلى الأحكام أو النسب بين الأشياء. وقد يزيد في إيضاح هذا المعنى ما أورده الإمام أَبُو حامد الغزالي حيث قال: «**اعلم أنّ الفكر هُوَ إحضار معرفتين لنصل من المقدمتين إلى النتيجة**»[1] كأن أقول «**أقيموا الصلاة**»، أمر، وكل أمر من الخالق -سبحانه وتعالى- لعباده فهو واجب؛ وهذه مقدّمة ثانية. والمقدمة الأولى دليلها لغويّ وهو فعل الأمر، وأما المقدمة الثانية فدليلها أصوليّ وهو كون الأمر واجب التنفيذ: فالصلاة واجبة: هذا هُوَ الشيء الثالث أي: النتيجة أو هِيَ المعرفة الثالثة المطلوبة فحينما لا يعرف الإنسان مثلا حكم الصلاة أهي واجب أم سنَّة؟ أقول: صلاة الضحى صلاها رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلّم-، وكل ما فعله أو تركه فإنّما هُوَ من قبيل السنَّة لا الفرض تكون النتيجة: فصلاة الضحى سنّة، توصلنا إذن إلى القضية الثالثة التي سمّوها «**بالنتيجة**». فلا بد من ذكر مقدّمتين أو أكثر في بعض المعارف لنتوصل من المقدّمات المعلومات لدينا إلى ما يسمى بالنتيجة أو المقدمة الثالثة. وهذا العمل هُوَ «**فكر**». والقرآن الكريم -كما قلنا-: ربط الفكر بالحركة لينبِّهنا. إلى أنّ ذلك الفكر الكسول المتعطِّل غير مرغوب فيه، فالفكر من أهل الفكر، الَّذي لا يؤدي إلى نفع دنيويّ أو أخرويّ لا محل له، لأنّه لا بد أن نفكر من أجل أن نصل إلى شيء في أمور دنيانا أو في أمور أخرانا. وأمَّا الفكر من أجل الفكر، أو الهيمان وراء أخيلة، غير منتجة، مبنيَّة على مقدّمات غير حقيقيّة، وليس لها مستندها ولا يوجد دليلها، فهو نوع من التخيُّل وليس بتفكير. وللأقدمين كلام طويل جدا للتفريق بين الفكر وبين التخيُّل وبين التدبُّر وبين التذكُّر يراجع في مظانه من الكتب الكلاميَّة مثل المواقف للايجيّ، وكتب التصوّف. والمطوّلات من الشروح ونحوها.

المعنى اللغويّ: اللغويّون يقولون: فكّر يفكّر تفكيرا بالتشديد يمكن أن يأتي من باب «**ضرب**» «**فَكَرَ - يَفْكِرُ - فِكْرا**» أو فكرًا يجوز أن يقال: «**أفكرته**» أي «**جعلته يفكر**» أي «**يتذكّر**» مثل «**ذكّرته**»، ويقول بعضهم: «**الفكر**» مقلوب عن «**الفَرْك**»، لكن الفركَ يستعمل للأمور الحسّيّة كما تفرك

[1] راجع: الغزالي، إحياء علوم الدين، ربع العبادات كتاب «التفكر».

القمح أو الذرة ونحوها، والفكر للأمور المعنويّة، ولهم كلام طويل في تحليل الجذر، وبيان الجمع والتثنية ومتى يلحقه التعريف ومتى لا يلحقه، ويهمنا منها أن نعرف أنّ هذه الكلمة جزء من البناء اللّغويّ له جذوره وله معناه في لغتنا العربيَّة، كما أنّ لها استعمالها في لسان القرآن.

ونخلص مما تقدم إلى أنّ «**الفكر**» يطلق على تردّد القوّة العاقلة في الإنسان بالنظر والتفكر والتعقّل والتدبُّر؛ للوصول إلى معان مجهولة من مقدمات معلومة. هذا: وللتفكير مناهجه وقواعده التي تضبط عمليَّة ممارستنا له. وأمّا علاقة «**التفكر**» «**بالتدبُّر**» فتتّضح أكثر حين ندرك أنّ «**التدبُّر**» يبدأ تفكّرًا يؤدى إلى «**تبصُّر**» يسبقه أي: «**التفكّر**» «**النظر**» حيث يدور القلب أو القوى العاقلة في الإنسان «**بالنظر**» ليجعل القلوب تفقه والأعين تبصر والآذان تسمع، ثم تبدأ القوى الواعية بالتفكر والتعقل، والقيام بسائر العمليّات الإدراكيّة.

* * *

مفهوم «النظر»:

تقليب البصر والبصيرة لإدراك الشيء ورؤيته، وقد يراد به المعرفة الحاصلة بعد الفحص بشروطه، وهو ما يطلق عليه «**الرؤية**» واستعمال «**النظر**» عند العامّة في البصر أكثر، واستعماله في «**البصيرة**» عند الخاصَّة أكثر ويقال: «**نظرت في الأمر**» إذا تدبّرته[1]. و«**النظْر**» قد يفيد التحيرُّ الَّذي لا يدل على معرفة في قوله تعالى: **[وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ]** (الأعراف:١٩٨)، وكذلك قوله تعالى: **[وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ]** (البقرة:٥٥). و«**النظر**» الَّذي يتصل بمفهوم «**التدبُّر**» هُوَ دوران القلب «**بالنظر**» والتأمّل بين «**قوى الوعي**» لجعل القلوب تفقه، أو تصل إلى حالة «**الفقه**» بإزالة العوائق الحاجبة، والأعين تبصر، وتكشف عنها الأغطية الحاجبة، والآذان تسمع ولا يستبدُّ بها صمم الغفلة أو الذنوب. وبذلك تصبح «**قوى الوعي**» قادرة على «**التدبُّر والتفكّر**» وبلوغ المعرفة وإدراك حقائق الأمور. فكأنَّ التفكُّر تأمّل أولّي يقود إلى «**النظر**» المتعمق الَّذي يوصّل إلى «**الإبصار**» والخروج من حالة الشبه بالأنعام:

---

[1] أنظر: الإيجي، المواقف (بيروت: دارالكتب العلمية، ١٩٩٨) ٢١_٢ بتصرف.

[وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ] (الأعراف:١٧٩) وكذلك مفارقة الحالة التي تلحق الإنسان بشر الدوابّ **[إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ (٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ]** (الأنفال:٢٢ -٢٣)

وهكذا يقود كل من هذه المفاهيم بعضها إلى بعض لتحقق –معًا- حالة «**التدبُّر**» فالتفكر يؤدي إلى النظر المستبصر، والنظر المستبصر يقود إلى البصيرة، والبصائر والتبصّر ثمارها المعارف الناتجة عن «**التدبُّر**» المحاط بكل هذه المفاهيم وبه تصبح آيات الكتاب ومفردات الكون «**بصائر**» تؤدي إلى مزيد من المعارف الدقيقة الصحيحة، وتفجر الحكمة في قلوب المتدبّرين. وتجعل المتدبّر للقرآن الكريم قادرًا على النفاذ إلى البصائر التي تكمن وراء المعاني الظاهرة أو المتبادرة إلى الأذهان البسيطة، وتفجير ينابيع الحكمة في قلب المتدبّر لا بد أن يمر بهذه المراحل التي قد يكابد الإنسان في بادئ الأمر للوصول إليها. لكنّه سوف يتنعّم كثيرًا بتلك المعارج عندما يصل إليها. **[يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلا أُولُو الأَلْبَابِ]** (البقرة:٢٦٩).

عقبات تحول دون التدبر:

١.الذنوب

فالذنوب أقفال القلوب، **[أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا]** (محمد:٢٤) وعشيّات الأبصار: **[وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ]** (الزخرف:٣٦-٣٧) ومغاليق البصائر. فإذا غشّت الذنوب على الأبصار وأصابتها «**بالعشو**» وضعف النظر واضطرابه. فإنّها تمنع بصيرة القلب وناظره من التحديق، وتقليب البصيرة في معاني القرآن وذلك هُوَ الحجاب والعياذ بالله، ولذلك لا بد لمريد التدبُّر من التطهّر من الذنوب والتوبة العامَّة والتوبة الخاصَّة: فالتوبة العامَّة أن يتوب كليًّا عن المعاصي والذنوب توبة تامَّة نصوحًا خالصة له - سبحانه - وأمّا التوبة الخاصّة فأن تتوب كل جارحة من جوارحه عن الذنوب التي قد تمارسها، فيتوب النظر عن النظر إلى المحارم، والسمع عن استماع المحرمات، والبطن عن الأطعمة والأشربة المحرمات... وهكذا.

٢. اتخاذ أحكام مسبقة من خارج القرآن قبل القراءة:

ومن تلك العوائق القدوم إلى القرآن المجيد بأفهام سابقة ومعان جاهزة ليسقطها على القرآن بقطع النظر عن مصادر تلك المعاني فيكون موقع القرآن -آنذاك- موقع الشاهد لما أعد خارجه من أحكام أو أفكار. فينبغي أن يرد القرآن أولا على القلوب لتنشغل به، ثم بعد ذلك يفسح المجال للمصادر والمراجع الأخرى لتكون واردة بعده، نازلة على معانيه بعد انشغال القلب بها، وتفاعله معها، وانفعاله بها. ولذلك نهى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلّم - عن الانشغال بكتابة سننه وأحاديثه خشية الانشغال بها عن القرآن المجيد، وأدرك الصحابة وهم «**جيل التلقي**» ذلك، وعرفوا موضع الحكمة فيه، فلم يكونوا يسمحون للقلوب بالانشغال بغير القرآن، وكانوا يتزلون سنن المصطفى على القرآن باعتبارها تطبيقًا له وتأويلا وتفعيلا لمحكم آياته، والحيلولة دون اختلاف الناس في الفهم والتأويل بعد بيان القرآن لنفسه، وبيانات رسول الله بالتعليم والتأويل العمليّ في الواقع وما إلى ذلك. وقد روي عن عمر -رضي الله تعالى عنه- أنّه خلا ذات يوم فجعل يحدّث نفسه: كيف تختلف هذه الأمَّة ونبيُّها واحد وقبلتها واحدة؟! فأرسل إلى ابن عباس فقال له: «**كيف تختلف هذه الأمَّة ونبيّها واحد وقبلتها واحدة**»؟ فقال ابن عباس: يا أمير المؤمنين «**إنّا أنزل علينا القرآن فقرأناه، وعلمنا فيم نزل؛ وإنّه سيكون بعدنا أقوام يقرؤون القرآن ولا يدرون فيم نزل، فيكون لهم فيه رأي،**

فاذا كان لهم فيه رأي اختلفوا، فإذا اختلفوا اقتتلوا» قال: فزجره عمر وانتهره فانصرف ابن عباس، ونظر عمر فيما قال، فعرفه فأرسل إليه؛ فقال: أعد عليّ ما قلت، فأعاده عليه فعرف عمر قوله!! [1]. قلت: يوضح ما قاله ابن عباس: أنّ العرب لم يكن لهم علم قبل نزول القرآن وبنزول القرآن تعلموا الكتاب والحكمة والعقيدة والشريعة، وكيفيَّة التزكية بالكتاب على يدي رسول الله -تعالى، ثم ما قال رسوله أو فعل في تأويل ما ورد به القرآن في الواقع ليتأسّى الناس به.

وقد عقد ابن عبد البر بابًا في «**ذكر كراهيَّة كتابه العلم وتخليده في الصحف**» وذلك في كتابه «**جامع بيان العلم وفضله**».

فالصحابة وفي مقدمتهم الشيخان لم يكونوا يسمحون بكتابة غير القرآن لئلا ينشغل الناس عن القرآن بأي شيء بما في ذلك السنن؛ لأنّهم كانوا يعلمون أنّهم إن فعلوا ذلك اختلفوا. وقد نقلنا كثيرًا من أقوالهم في هذا الجانب مما أورده ابن عبد البر والخطيب البغداديّ ثم الذهبيّ وسواهم. وفي ذلك حكمة بالغة تتعلق بتحديد المرجعيَّة وتوحيدها. فعن عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- أنّه قال: «**إنّي كنت أريد أن أكتب السنن وإنّي ذكرت قومًا كانوا قبلكم كتبوا كتبًا فأكبّوا عليها، وتركوا كتاب الله وإنّي -والله- لا أشوب كتاب الله بشيء أبدًا**».

وعن جابر بن عبد الله بن يسار قال: «**سمعت عليًا يخطب يقول: أعزم على كل من كان عنده كتاب ألا رجع فمحاه فإنّما هلك الناس حيث يتبعون أحاديث علمائهم وتركوا كتاب ربّهم**». وعن أبي نضرة قال: قلت لأبي سعيد الخدري: «**ألا نكتب ما نسمع منك؟ قال: أتريدون أن تجعلوها مصاحف**»؟ وروي عن ابن مسعود قوله: «**إنّ هذه القلوب أوعية فاشغلوها بالقرآن ولا تشغلوها بغيره**»[2]. فسبب الاختلاف هجر القرآن، والانشغال عن تدبّره بالروايات والأخبار، والإسرائيليّات التي روج لها القصّاصون والرواة المتهمون. فنشأت إشكاليّات كثيرة أوجدت بين المسلمين اختلافات عظيمة ما زالوا يعانون منها

---

[1] اخرجه ابو عبيد في فضائل القرآن (ص٤٥-٤٦) وسعيد ابن منصور في سننه (١٧٦/١) والبيهقي في شعب الايمان (٢٣٠/٥-٢٣١) رقم (٢٠٨٦) والبغدادي في الجامع (١٩٤/٢ -رقم ١٥٨٧) على ما في هامش الموافقات (١٤٨/٤) وانظر بقية تخريجه بهامشها.

[2] ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٣٩٨) ٦٥/١. وانظر رقية طه العلواني، تدبّر القرآن بين النظريّة والتطبيق، (البحرين: جمعية النور، ٢٠٠٢) ٣٩.

حتى اليوم. ومن هذه الإشكاليّات، إشكالية القراءات خاصة ما تعارفوا على تسميته بالقراءة الشاذة، وإشكاليّة الأحرف السبعة، وتدبّر القرآن المجيد بشروطه كفيل بإذنه تعالى بمعالجة هذه الإشكاليّات وغيرها.

من الجوانب السلبيّة أن يمارس القارئ القراءة في القرآن الكريم طلبًا لشاهد أو دليل لتأييد موقف يقفه أو رأي يراه، أو مذهب يتمذهب به أو جماعة ينتمي إليها. ففي هذه الحالة - أيضًا - سوف يكون محجوبًا عن جوانب هامَّة من أنوار القرآن وأضواءه ووسائل هدايته ومعانيه. وهذا ما قد نطلق عليه «**القراءة الأيديولوجيَّة**».

٣. إشكاليّة الناسخ والمنسوخ:

قضايا «**الناسخ والمنسوخ**» التي نتداولها باعتبارها علمًا من «**علوم القرآن**» اشتملت على أمور سلبيّة كثيرة حمَّلت القرآن الكريم مجموعة من الأمور التي ما كان ينبغي لهذه الأمة أن تغفل عنها، وما كان ينبغي أن تسمح لها أن تمر فضلاً عن أن تعيش وتتداول حتى أيامنا هذه، فهناك -على سبيل المثال- أحاديث في هذا الباب، منها حديث ينسب إلى أمنا عائشة - رضوان الله عليها - ولا شك أنَّها بريئة من ذلك تقول: «**أتدرون كم هِيَ سورة الأحزاب اليوم؟ قالوا يا أم المؤمنين إنها(٧٣) آية، قالت: والله لقد كنا نقرؤها على عهد رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلّم- وإنّها تعدل سورة البقرة تجاوز المئتين**»[(١)]، فهذا الكلام كيف يمكن أن نقبله؟! وكيف يمكن أن نستمر بتداوله؟ ونحن نعرف أنَّ الله -سبحانه وتعالى- هُوَ الَّذي تكفل بنفسه بحفظ هذا القرآن والحيلولة دون نسيان أو تجاهل أو تحريف أيّ شيء منه مهما كان حتى لو كان كلمة أو حرفًا.

وكيف يستقيم أن ينسب إلى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قوله على المنبر كما تذكر كتب «**الناسخ والمنسوخ**»: «أخشى أن يطول على الناس زمان ويقولون: لا نجد الرجم في كتاب الله، ألا إنَّ رسول الله قد رجم ورجمنا ولولا أنّني أخشى أن يقال: زاد عمر في كتاب الله لوضعت آية الرجم موضعها

(١) - راجع دراستنا القرآنيّة، "إشكاليّة الناسخ والمنسوخ" فقد أوردنا فيها كل هذه الأخبار وناقشناها وبيَّنا عللها أسانيد ومتوناً. وما نذكره هنا نريد أن نؤكد فيه نفي وقوع النسخ في القرآن وبيان أنّ «التدبُّر» السليم سيقود «المتدبّر» إلى ضرورة تجاوز هذه الإشكاليّة. وتدبّر آيات الكتاب لحلّها، ونبذها وإخراجها من بين ما سميّ «بعلوم القرآن».

من سورة الأحزاب»، «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله»، فهي أمر منحول ومكذوب ومنسوب إلى عمر ولا تصح نسبته ولا يمكن تصحيحه بشكل من الأشكال.

كذلك الحديث الآخر المنسوب إلى أم المؤمنين عائشة وهو قولها: «**كنّا نقرأ عشر رضعات مشبعات يحرّمن فنسخن بخمس معلومات، وقد توفي رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلّم- وهن فيما يقرأ من كتاب الله**»، كيف يمكن أن يستقيم هذا؟! وما الّذي حدث إذا كانت تقرأ في عهد رسول الله؟! ونحن نعرف ونؤمن أنّ الله -سبحانه- وتعالى قال: **[إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ]** (الحجر:٩) وقال سبحانه وتعالى: **[لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ]** (القيامة:١٦-١٧)، وإذا كان أهل السنّة يتداولون مثل هذه الأحاديث وظلت تتزل من جيل إلى جيل في علوم القرآن ويجري تناقلها في علم «**أصول الفقه**» كذلك وكأنّها أمور مسلّمة لا جدال فيها، ولا نقد يوجّه إليها فقد جرّأ ذلك بعض الطوائف أن يزعموا بأن سورة تسمى بـــ «سورة الولاية» رفعت من القرآن، أو أكلتها داجن في عهد سيدنا عثمان، ونسب لبعض علماء تلك الطوائف كتاب «فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب»، أو ما أشبه ذلك، فمثل هذه الإصابات أو الفيروسات الخطيرة كيف يمكن أن تستمر، وتقبل وتبقى في تراثنا لتحجب عنا أنوار القرآن الكريم؟! ولتعطي للمستشرقين وخصوم الإسلام والمسلمين مادة يستخدمونها لصرف الناس عن القرآن والتشكيك في سلامته وعصمته، وحفظ الله له؟! إن أعداء القرآن -اليوم- يستشهدون بهذه المرويّات المنحولة لإثبات وبيان أنّ القرآن مثله مثل بقيّة الكتب التي نالها التحريف والتزوير والحذف والإضافة وما أشبه ذلك. ونحن نعلم أنّ القرآن الكريم أحكم الله إنزاله وحفظه كما أحكم الكون، وقال سبحانه وتعالى: **[فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (٧٨) لا يَمَسُّهُ إِلا الْمُطَهَّرُونَ]** (الواقعة:٧٥-٧٩)، فكما أنّ الكون قد ضبطت بنائيّته ووضعت في أحكم شكل فإنّ القرآن قد أحكم بناؤه وحفظه العزيز العليم.

إنّنا في حاجة إلى تغيير الكثير من هذه المعارف ومحاولة مراجعتها وتنقيتها وتصفيتها وإعادة قراءتها بشكل يمكننا من تجاوزها بعد أن ظلت تتداول عبر قرون، والعروج إلى علياء القرآن ونحن موقنون تمامًا

بحفظ الله سبحانه وتعالى له وعصمته وجمعه وإقراءه لرسول الله -صلى الله عليه وآله وسلّم- بحيث لم ينس شيئًا منه. وهناك الكثير مما يمكن أن يقال في هذا الصدد لو اتسع المقام[1].

فنحن في حاجة إلى نهضة علميَّة فكريّة معرفيّة نراجع فيها تراثنا النقليّ - كلّه - ونحاول أن ننقّيه من كل ما أصابه من مثل هذه الأمراض. فنحن اليوم نواجه تحديًا عالميًّا خطيرًا يستهدف ديننا وهُويَّتنا وثقافتنا ومواردنا ويريد أن ينهي وجودنا بوصفنا أمّةً مسلمة وينهي تاريخنا وحضارتنا.

وفي هذه الأجواء الاستلاَّبية قد يرتد بعض الناس إلى التراث بقضه وقضيضه للاحتماء به كما هو!! فالمعركة تعتبر معركة هُويَّة، وقد ينطوي بعضٌ عليه ويرفضون أن يوّجه إليه أيّ نقد. وهذه أمور في غاية الخطورة لا ينبغي السقوط فيها.

إنَّ معركتنا هذه ينبغي أن تكون حافزًا لنا على تجديد تراثنا، وإعادة بناءه ومحاولة تنقيته مما لحق به، لا على التشبّث به تعصّبًا كما هو، ومحاولة الاحتماء به دون تمحيص. فالقرآن الكريم علمّنا أن نستمع القول ونتبع أحسنه. **[الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الأَلْبَابِ]** (الزمر:١٨). فإنَّ التراث المصاب لا يمكن أن يكون قادرًا على حماية أهله، بل على العكس، إنَّما هُوَ عبء عليهم ولا يزيدهم إلا خبالا ولا ينبغي أن يكون ناتج هذه المعركة التي تشن ضدّ هذه الأمة وتراثها وثقافتها ودينها ووجودها دافعًا إلى التشبُّث بالإصابات وبمواطن الأمراض بل دافعًا إلى القيام بعمليّة التجديد والتجدُّد بالقرآن ذاته فهو كتاب كونيّ قادر على مساعدة هذه الأمَّة على شق طريقها نحو النهوض —بإذن الله- إذا استطاعت أن تبنى لنفسها حاسّة النقد والتمييز، والتصديق على ذلك - كله - بالقرآن المجيد.

إنّنا في حاجة إلى أن ندرك:

أولاً: عظمة القرآن المجيد، وذلك «**بالتفكّر والتدبُّر**» في أسماءه وصفاته وأهدافه وأهم محاوره، ومعرفة ماذا يعني كونه «**كلام الله**» الأخير المعصوم المحفوظ إلى البشريّة، وأنّه الكتاب الكونّي الوحيد القادر

[1] - وقد نشرنا دراسة أشرنا اليها سابقًا عالجنا فيها موضوع «النسخ» بشكل منهجي خرجنا بعد ذلك بنتيجة صريحة بأنّه لا نسخ في القرآن، وأثبتنا ذلك بأدلة قرآنيّة ونبويّة لا يرقى إليها الشك والحمد لله وحده. فإلى تدبّر القرآن كلّه، وفهم وفقه سائر آياته دعانا ربنا - جل شأنه - و لم يقل لنا: «هذا منسوخ أو متشابه» فلا تتدبّروه. وقد فرغنا -بفضل الله- من دراسة «اشكاليّة المحكم والمتشابه» وفرغنا منها وهي قيد الطبع الآن ونحن ماضون في دراسة الاشكاليّات الأخرى بإذنه تعالى لئلا تعترض هذه الاشكاليات سبل المتدبّرين بإذنه تعالى.

على إمداد البشريّة بما هيَ في حاجة إليه للخلاص من أزماتها، وأن نستصحب ذلك في كل حين ونربّي ناشئتنا وأجيالنا على ذلك.

ثانيًا: إنَّ القرآن لم يشتمل على رسالة يمكن أن تنحصر في مخاطبة أمّة واحدة، بل هُوَ كتاب الأنبياء والمرسلين - كافّة - فقد ضم بين دفتيه رسالات جميع الأنبياء والمرسلين في العقيدة وكليَّات ومقاصد الشريعة.

بل وضم قصص وأخبار ورسالات الأنبياء الذين اندثرت أممهم، فحفظ للبشرية تراثهم في العقيدة والكليّات الشرعيّة. وبذلك وحّد أمَّة الأنبياء تمهيدًا لتوحيد البشريّة، وجمع كلمتها على قيم مشتركة، وجعله حامل الخطاب العالميّ إلى البشريّة كافة.

ثالثًا: لقد امتاز القرآن الكريم - باعتباره الكتاب الكونّي - بخاصيّتين:

الأولى: تيسيره للذكر لئلا يحال بينه وبين أي فصيل أو قبيل من الناس. ومن أهم مستلزمات تيسيره غناه عن التفسيرات الخاصَّة،والنسبية والمؤدلجة. الثانية: إشاعته وإذاعته، وربط المؤمنين به كافّة بطريق التعبّد في الصلاة في كل يوم، وجعله حكمًا حكيمًا ومحكمًا، لا يمكن هجره أو تجاوزه أو الإعراض عنه.

وبقدر ما هُوَ سهل وميَّسر للذكر فإنَّ فيه أمثالا وقصصا وتاريخا وعلومًا كثيرة، وأحكامًا وفقهًا، ونواحي أخرى لا يعقلها إلا العالمون، ولا يدرك جوانبها ومراميها إلا أهل الذكر.

ولقد بذل أسلافنا من علماء «**جيل التلقي**» والأجيال التي تلته جهودًا جبَّارة في خدمته، واستجلاء معانيه، وجمع كل ما يتعلّق به، ولم تنضب معارفه وعلومه، ولم تكدر ينابيعه الدلاء. بل إنَّ سائر العلوم والمعارف التي شادتها أجيال الأمَّة قد دارت حوله، وصدرت عنه، ووردت إليه، ولم يشبع منه العلماء، ولم تنقض عجائبه، ولم يخلق على كثرة الرد.

ومن خصائص القرآن - أيضًا - التي اختص بها: أنَّه - إضافة إلى مجده وشرفه وكرمه وعطائه - كتاب مكنون لا يمسُّه إلا المطهرَّون قلوبًا ونفوسًا وعقولا إضافة إلى الطهارات الحسيَّة. ويتكشَّف مكنونه عن معانيه التي لا يحيط بها إلا منزّله عبر العصور لتبقى العقول والقلوب والأفئدة مشدودة إليه، مرتبطة به لا تزيغ عنه. ولا تملّ تدبّره.

٤. الاختلاف:

فإذا وقع اختلاف بين القارئين للقرآن الكريم، وتنازعوا أمرهم في قراءاتهم، وحاول كلّ منهم أن يتخذ موقفًا مّا، ويستدل لذلك الموقف بالقرآن، ويفتعل مجادلة في آياته ومحاملها، هنا نجد رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلّم- ينصح هؤلاء بأن يتركوا القرآن، وأن يقوموا عنه، حيث إنّ القرآن في هذه الحالة - حالة الاختلاف والشقاق النفسيّ- سوف يتحول لدى هؤلاء القارئين إلى شواهد مجردة ووسائل تدور في دوائر آرائهم التي اختلفوا فيها وحولها، وسيؤدي ذلك إلى أن يضربوا القرآن بعضه ببعض بدلا من أن يقرئوه في تكامل تام، وفي إطار وحدته البنائيَّة؛ ليتعرّضوا لنفحات الله -سبحانه وتعالى- فيه.

٥. غموض الغاية.

نقطة أخرى لا بد للقارئ أن يتنبه إليها وهي ضرورة تحديد موقعه من الخطاب، ما موقعي أنا؟ هل جئت إلى القرآن الكريم طالب هداية أو طالب تعبّد وثواب، أو طالب معرفة حكم أو طالب معرفة سنن إلهيَّة أو سنن اجتماعيَّة أو تاريخ أقوام أو استنباط هداية؟ -وذلك ما سمّيناه فيما تقدم «**بالنيَّة**»- لا بد للقارئ أن يحدد موقعه من القرآن الكريم وهو يدخل أو يلج إلى رحابه، ولا بد أن يحدّد موقع الخطاب منه، ما علاقة القرآن به؟ وهنا يبيّن إيمانه واحترامه للقرآن ورؤيته له، وألفته معه، وعلاقته به، وتصوره له ولمكانته وصفاته وأسمائه، وكونيّته وعالميّة خطابه. وهذه الأمور كلها لا بد من استحضارها؛ ليتمكن القارئ من تحديد موقع الخطاب منه، وموقعه من الخطاب القرآنيّ!!

* * *

الفصل الثاني

مداخل التدبر

للتدبّر مداخل تعين المتدبّر على تهيئة «قوى وعيه» لممارسة فعل «التدبُّر» انطلاقًا منها وبلوغ حالة المتدبّرين. وهذه المداخل تؤدي دور مقدّمات، ومنطلقات تعين «المتدبّر» على ممارسته بيسر وبدقة؛ وهذه المداخل عند الوعي بها تؤدي دور المثير للانفعال القلبيّ، والخشوع والإخبات عند القراءة، وعند معايشتها، والإكثار من الاهتمام بها قد يوجد لدى القارئ خبرة وملكة يمكن تعلّمها وتعليمها بحيث تقود إلى «التدبُّر».

التدبر ومداخله لدى السلف الصالح

الجيل الأول: جيل التلقي.

إنّ لجيل التلقي الَّذي عاصر رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلّم- منهجهم في «تدبّر القرآن» ومن المفيد أن نستكشف طرائق أسلافنا- من «**جيل التلقي**» خاصّة- لننظر كيف مارسوا تدبّر هذا الكتاب الكريم، وكيف نستطيع أن نبني على ذلك قواعد للتدبّر، مستعينين بالمحدّدات المنهاجيّة والمؤشّرات الموجودة في هذا الكتاب؟!! والمداخل التي سبق لنا ذكرها، وكيف استعملها السلف وهل ما تزال قادرة على مد الأجيال المسلمة بطاقات التدبُّر؟ على أن لا تتوقف محاولات المؤمنين الخاشعين المتدبّرين عن البحث عن مداخل إضافية للتدبّر أو وسائل إضافيّة لتفعيل المداخل الموروثة.

* * *

نحن نعلم أنّ الجيل الَّذي عاصر رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلّم-: وهو «**جيل الصحابة أو جيل التلقّي**»، الَّذي تلقّى القرآن الكريم من لدن رسول الله-صلى الله عليه وآله وسلّم- كما تلقّاه رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلّم- من لدن الحكيم الخبير.

هؤلاء الذين تلقوا القرآن عنه- عليه الصلاة والسلام- تعلّموا منه كيف يتدبّرون القرآن. لقد كان نزوله مفرّقًا ومنجّمًا، ومعرفتهم بارتباطه بقضايا عصرهم ووسطهم كانت من العوامل المساعدة على حسن

التدبُّر، وكذلك مشاهدهم لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلّم - أثناء نزوله عليه وتلك حكمة بالغة أرادها الله - تبارك وتعالى - لبناء الجماعة الأولى بناءً نموذجيًا، وهذا لا يعني الإخلال بإطلاق القرآن الكريم، ولا يمكن أن تؤدي إلى وصفه «**بالتاريخانيّة**» إلا لدى المستشرقين الذين لم يؤمنوا بالقرآن فكان عليهم «**عمى**» وتلامذهم من المنسوبين إلينا - الذين كانوا أشدّ ضلالا منهم، ولذلك نجد علمًا من علوم القرآن سمي: بعلم «**أسباب النزول**» أو «**مناسبات النزول**»، بعد تدوين العلوم سنة (١٤٣هـ) فكثيرًا ما تفرز البيئة، بيئة الصحابة سؤالا أو إشكالا أو أزمة ويهرع الصحابة إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلّم - سائلين عن الحل، باحثين عن الجواب، ورسول الله - صلى الله عليه وآله وسلّم إمّا أن تكون لديه من آيات الكتاب نجم أو جملة يمكن أن يحيل عليها، ويوضح لهم أنّ ما يسألون عنه سوف يجدون جوابه في هذه الآيات، وإمّا أن يخبرهم بأنّه سوف ينتظر الوحي من الله - تبارك وتعالى - وتنزل الآيات لتعالج تلك المشكلة، وتبيّن سبيل الهدى في تلك الأزمة، حدث ذلك مثلا في «**قضية الإفك**»، حينما اُتُهمت أمّ المؤمنين عائشة - رضي الله عنها وأرضاها - من أولئك المنافقين بتلك التهمة والفرية النكراء، وانتظر رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلّم - وعائشة وأصحابه، انتظروا شهرًا كاملا وهم في غاية الضيق والحرج والحيرة. ولك أن تتخيّل حال الجميع حين تُوجّه التهمة إلى زوجة رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلّم - الأثيرة لديه، وهو رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلّم - ولا يكون عنده ما يقوله أو يفعله سوى أن يصبر ويصبر ويصبر ويتحمَّل ومعه أهله، ويتحمَّل معهم المؤمنون، كلّ تلك الضغوط النفسيّة الهائلة في مثل تلك البيئة، والمنافقون يروحون ويجيئون ليروجوا لما افتروه ولما حاكوه من أكاذيب على أمّ المؤمنين، ثم ينزل القرآن المجيد بعد شهر كأنّه دهر طويل من الانتظار ليقول: **[إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْك عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ]** (النور: ١١) إلى آخر الآيات، وإذا بهذه الآيات تجيب عن السؤال القائم، وتعالج الأزمة القائمة في تلك البيئة، وتعطي أحكامًا من طبيعتها العموم والشمول والإطلاق لكي تستفيد البشريّة كلها بتلك التوجيهات في القضايا المماثلة حتى يوم القيامة.

ولذلك، قال الأصوليُّون: «**العبرة بعموم الْلفظ لا بخصوص السبب**»[1]، فالسبب نأخذه بنظر الاعتبار لمزيد من الفهم، لكن العبرة الأساسيّة والفهم الأساس هُوَ القائم على عموم اللّفظ ومعرفة ما يمكن أن يندرج تحت دلالات اللفظ نفسه، لتكون الحلول والمعالجات القرآنيّة مطلقة، صالحة لكل زمان ومكان، عالميّة صالحة لكل مجتمع. لا تخصّصها مناسبة ورود أو سبب نزول.

كذلك حينما حدثت قصة زيد بن حارثة يوم جاء إلى رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلّم- يريد أن يطلق زينب ورسول الله يؤمر من فوق سبع سموات يأمره الله - تبارك وتعالى - أن يتزوج زينب، وزيد بن حارثة كان يدعى زيد بن مُحَمَّد فهو ابن له بالتبنِّي -صلى الله عليه وآله وسلّم- وكانت «**قضيَّة التبنّى**» عند العرب قضيّة كبيرة والمتبنَّي عندهم ابن لا يختلف عن أبنائهم من أصلابهم فليس من السهل قبول أو تحمّل أو تمرير زواج الرجل بزوجة متبنّاه، إذ كانوا يرون أنّ المتبنّى كالابن الصلبيّ دون خلاف، وإذا بالقرآن الكريم ينزل إلى رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلّم- ليقول: **[مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا]** (الأحزاب: ٤٠)، ثم يبيّن لنا قضية زيد وزينب بالتفصيل ويخاطب رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلّم- **[ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا]** (الأحزاب: ٤ -٥).

ثم يخاطب رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلّم- ويقول له **[وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولا]** (الأحزاب:٣٧). فهذه نسميها «**مناسبات النزول أو أسباب النزول**» كما يطلق بعضٌ عليها - لا تقيِّد القرآن بنفسها إليها، ولا ينحصر الخطاب المطلق بها. ولكنَّها قد تعطي مزيدًا من الضوء على فهم الآية، وفقه تنزيلها على الواقع الَّذي يعيشونه، وكيفيَّة تدبّرها! فجيل التلقي لمشاهدته القرآن وهو ينزل على رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلّم- ولارتباط كثير من نجوم

[1] - ذكرت هذه القاعدة في مراجع أصولية كثيرة تناولت هذه القاعدة بالشرح وبسطتها. راجع فخر الدين الرازي، المحصول في علم أصول الفقه، تحقيق: طه العلواني (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٢) ٢/ ٣٠٩ وما بعدها وقد ذكرها ضمناً و لم يفرد لها مسألة أو بحثًا.

القرآن بقضايا كانوا يعايشونها، كانت قضيَّة تعاملهم مع القرآن الكريم، وفهمهم له قضيَّة ميسَّرة لا يحتاجون فيها إلى وساطة مفسّر، أو مؤوّل، فلغة القرآن قريبة جدًا من لغتهم - مع إعجاز لسان القرآن - والقرآن نجومه تتنزّل تباعًا، وتشتبك مع بيئة الخطاب التي هيَ بيئتهم في عمليّات التغيير الدائمة المستمرة، وتلك أفضل الوسائل والمنطلقات لتحقيق ذلك الفهم العميق، ولذلك كان ذلك الجيل - جيل التلقي - أفضل الأجيال تدبّرا، وهو الجيل الَّذي استحق أن يوصف بأنّه جيل القرآن المجيد، ويحمل صفة الخيريَّة والوسطيَّة والشهادة على الناس وهو الجيل الَّذي يستحق أن يلقَّب بأنّه «**جيل السلف**» و«**جيل التلقي**».

نستطيع أن نستخلص ممّا تقدم أنّ من أهم المداخل لمقاربة القرآن المجيد في «**جيل التلقي**» «**مدخل الأزمات والأسئلة**» التي يفرزها الواقع فيتزل القرآن المجيد بمناسبة إثارتها، لا ليلتصق بذلك الواقع، ويُستوعَب في مشكلاته وأزماته، كما قد يتوهم بعض الجاهلين، بل ليستوعبها بحلوله وإجاباته ويقوم بترقية الواقع ثم تجاوزه، وهكذا يبقى القرآن الكريم في حالة استيعاب وتجاوز وتقديم حلول وترقية للواقع ثم تجاوزه إلى واقع غيره، يكون أفضل منه.

لكن هناك فروقٌ دقيقة بين «**عصر التنزيل**» والعصور التي تلته؛ ففي عصر التنزيل كان القرآن يتزل نجومًا ليجيب عن أسئلة الواقع، ويستوعبها ثم يتجاوز بالواقع تلك المشكلات بعد معالجتها وترقية الواقع وتمكينه من تجاوزها.

أمّا بالنسبة للعصور التالية فإنّ القرآن الكريم تامٌ كامل -كما ذكرنا-، وذلك يقتضي أن يصوغ الناس أزماقم وإشكاليَّاقم وأسئلتهم، ثم يذهبون بها إلى القرآن الكريم ليضعوا ذلك بين يديه، ويستنطقوه الجواب، وقد يطول الحوار بين أصحاب الأزمة والمشكلة أو السؤال، وقد يحتاجون إلى قراءة القرآن —كلّه- لئلا يتحول الأمر إلى إسقاط موضوعات على القرآن الكريم مصاغةً خارجه، لأنَّ القرآن الكريم هُوَ الَّذِي يصوغ موضوعاته إذا أحسن القارئ الحوار معه. وهذان الأمران من أهم الفوارق بين «**جيل التلقي**» والأجيال التالية.

* * *

الجيل الثاني: جيل الرواية والنقل:

الجيل الثاني الَّذِي هُوَ جيل صغار الصحابة الذين كبروا بعد وفاة رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلّم- وكبار التابعين، هذا الجيل كان يسمّى «**بجيل الرواية**»؛ لأنّه بدأ يلتقط كلّ ما تركه جيل التلقي، ويحاول استيعابه وتداوله، ومعالجة مستجداته به، ونقله إلى الأجيال الأخرى، ولذلك نسميه بجيل الرواية نسبةً إليها، فازدهرت الرواية، في ذلك الجيل سواء الرواية المتعلّقة بنقل القرآن المجيد وتعليمه للأجيال التالية، كما حفظوه في السطور وفي الصدور.

أو نقل قراءته وأحكام تجويده والصلاة به وكيفيّات اتّباع النبيّ- صلى الله عليه وآله وسلّم- له وتنزيله في واقع معيش وسائر ما يتعلق بذلك، أو الأحاديث النبويّة الشارحة سواء أكانت أحاديث قوليّة أو أحاديث فعليّة تطبيقيّة أو أحاديث تقريريّة، تلك الأحاديث الشارحة والمبيّنة لكيفيّات الاتّباع النبويّ للقرآن المجيد، وتفعيل آياته في الواقع ويلاحظ أنَّ هذا الجيل - أيضًا - كانوا حديثي عهد بجيل التلقي فكانوا شديدي التعلّق بالقرآن المجيد، وشديدي التعلّق بقضاياه. صحيح أنّهم لم يكونوا بمستوى «**جيل التلقي**» الَّذِي كان الخطاب القرآني يشتبك مع بيئته لإحداث التغيير فيها بالطريقة التي أشرنا إليها، ولكن كان لهم من ذلك نصيب كبير وافر، إذ لم يطل الأمد بعد ولم تقس القلوب، وأهم ما يمكن رصده في هذا الجيل «**جيل الرواية**» هُوَ أنّ رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلّم- في مرحلة التلقي كان يمثّل «**المنهج**» الَّذِي به يعرف أبناء ذلك الجيل دقة معرفتهم وسلامتها وحسن إدراكهم لمراد القرآن المجيد، فهو -صلى الله عليه وآله وسلّم- يعلّمهم الكتاب أدق تعليم وأصحّه، ويبيّن لهم بكل مراتب البيان كيفيّة اتباع القرآن المجيد مع الأمن من الوقوع في الخطأ؛ لأنَّ الوحي كان يستدرك ويسدّد ويتابع التطبيقات والتأويلات النبويّة فلا مجال للخطأ لوجود كل هذه الضوابط الصارمة.

أمّا بعد غياب رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلّم- والتحاقه بالرفيق الأعلى: فقد أقبل «**جيل الرواية**» على جمع كل ما استطاع جمعه من السنن والآثار والمرويَّات عن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلّم- والصحابة الذين عايشوه- صلى الله عليه وآله وسلّم- وشاهدوه والوحي يتزل عليه فيعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم به ويدربهم على اتباعه، فقد كان ذلك هُوَ الوسيلة البديلة- في نظرهم- عن الوجود الشخصيّ له -صلى الله عليه وآله وسلّم- فكأنّ السنن تقوم بالمهمة، أعني مهمة «**المنهج**» الَّذِي يضبط فهم المسلم وتحركه في الواقع وهو يمارس عمليَّة «**اتّباع القرآن**». وقد كان ينبغي أن تُؤسس

دراسات توضح كيفيّة «**التعامل المنهجيّ**» مع السنن بأنواعها؛ لئلا يحدث كثير من اللّبس وسوء الفهم ولو حدث هذا لبقيت حركة «**الاجتهاد والتجديد**» حيّة تمارس دورها في كل عصر ومصر في عمليّة استيعاب المستجدات وترقيتها بالقرآن ومنهج النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلّم - في التعامل معه وبمنهج دقيق للتعامل مع السنّة وتأويل آيات الكتاب وتفعيلها في الواقع بهذا الاعتبار أي باعتبارها منهجًا للتعامل مع القرآن المجيد. ولسارا معًا دون افتراق فتكون السنّة «**بكليّاتها منهجًا**» و«**بجزئيّاتها فقهًا**» وتزول بذلك كثير من الإشكاليّات الموروثة والمعاصرة. [1]

* * *

الجيل الثالث: جيل الفقه:

وفي هذا الجيل التفت علماء المسلمين إلى عمليّات ضبط الحياة الإسلاميّة بضوابط التشريع، ومن أجل أن يفعلوا ذلك رأوا أنّه لا بد من تأسيس «**الفقه**»، ولذلك أطلق عليهم «**جيل الفقه**»، و«**الفقه**» كما لا يخفى هُوَ «**معرفة الأحكام الشرعيّة العمليّة المكتسبة من الأدلة التفصيليَّة**» أي: من القرآن الكريم، ومن منهج اتباعه وبيانه القوليّ والعمليّ والتقريريّ في السنَّة النبويّة، هذا الجيل - «**جيل الفقه**» - استطاع أن يغطي متطلَّبات الحياة، «**بفقه النصّ**»، فالمجتهد أو العالم من الأئمة المعروفين أمثال أبي حنيفة وجعفر ومالك والشافعي وأحمد وسفيان والباقر وسواهم، هؤلاء —كلُّهم - كانوا يقرأون الخطاب القرآنيّ، ولكن من مدخل البحث عن الأحكام الشرعيّة، وهو مدخل سليم صحيح يفيد قارئه ما يتعلّق بالأحكام، إلاّ أنّه يجعل عقل الباحث ولبّه دائرين بتركيز تام حول الحكم الشرعيّ الَّذِي يراد الوصول إليه ولذلك رأينا الأجيال الذين جاؤوا بعد هؤلاء الأئمة الكبار يحاولون أن يحصوا ما سموه بآيات الأحكام ويعدوها عدًّا ليمارسوا عمليّات الاستدلال والاستنباط فيها فقط. فبعضهم عدها «**٥٠٠ آية**» وبعضهم ذهب إلى أنّها «**٣٠٠ و٣٤٠**»، أو أقل أو أكثر من ذلك بحسب قواعد كل مذهب من هذه المذاهب.

ولكن «مدخل الفهم والتدبّر أو مدخل مقاربة القرآن المجيد» لديهم كان مدخل الأحكام؛ أي: البحث عن حكم فقهيّ تشريعيّ لمسألة من المسائل التي تعج بها الحياة، والبحث عن حكم شيء، واستجلاء

---

[1] - إنّ المرويات التي تم جمعها في تلك المرحلة لم تخضع أسانيدها لقواعد الجرح والتعديل حتى سنة مائتين هـــ وما بعدها، حين بدأ المحدثون يؤسسون لتلك القواعد. راجع التكميل للمعلمي. مصدر سابق.

معاني القرآن بجملتها شيء آخر، لذلك كان في ذلك التحديد بالعدد نوع من تجاوز مفهوم «**الوحدة البنائيَّة للقرآن المجيد**»[1].

في عهد هذا الجيل، الَّذي تأسّس الفقه في زمنه، أقبل الناس على القرآن المجيد، وعلى ما يبيّنه ويوضحه من تطبيقات نبويّة تجعل منها سنَّة تتَّبع من أجل استنباط الأحكام الفقهيَّة من الكتاب، واتباع ما جاء به في الواقع. هذا المدخل «**مدخل البحث عن الأحكام في القرآن**» أو «**التدبُّر للوصول إلى الأحكام**» هُوَ الَّذِي ساد بعد ذلك بالنسبة للأجيال التي تلت ذلك الجيل اجتهادًا وتقليدًا، ولذلك ساد نوع من الفهم، - وهو فهم فيه نظر - بأنّ القرآن الكريم مصدر للتشريع أو مصدر أساس للتشريع وهذا صحيح فهو المصدر المنشئ للتشريع ولكن التشريع بعض ما جاء به القرآن. وذلك التحديد بالعدد يجعل الأنظار تتجه إلى آيات الأحكام فقط، والنظر إلى ما عداها على أنَّها آيات مسوقة للعبرة والاتّعاظ، فهو مصدر للعظة والعبرة والتعبُّد بما تناول في قصصه وأمثاله، وأضاف آخرون: إنّ القرآن مصدر للغيب، ولما لا يدرك إلا بالسمع من أمور الآخرة.

ولذلك فقد يحاول البعض أن يحصر أغراض القرآن الكريم في تلك الأغراض الثلاثة فقط، فقالوا: القرآن الكريم يبيّن لنا العقيدة وعالم الغيب، ويبيّن لنا الأحكام الفقهيَّة فيما يتعلّق بشئون الحياة، ويبيّن لنا في الوقت نفسه قصصًا وأمثالا نأخذ منها العبر والدروس، وتلك هِيَ محاوره التي دارت آيات الكتاب - كلها - حولها.

ولعمري فإنّ القرآن المجيد أعظم من هذا وأوسع من هذه المحاور كلّها وأشمل. وفي حصر مداخل القراءة أو تلاوة القرآن وتدبّره بحسب تلك الرؤية في مداخل قراءة القرآن للعبادة، والتعبّد وكسب الأجر والثواب - في ذلك نظر، ولا شك أنَّ القرآن الكريم أعلى أنواع الذكر، وفي قراءته من الأجر والثواب ما لا يمكن أن يحصل عليه الإنسان في قراءة غيره ولكنّ القرآن تبيان لكل شيء، ومصدر لكل خير، فلِمَ يقتصر القارئ على باب واحد من أبواب ذلك الفضل العظيم؟!!.

والمدخل الثاني - كما ذكرنا - في ذلك الجيل هُوَ مدخل من أهم المداخل التي برزت في «**جيل الفقه**» - مدخل بناء أصول الفقه والنظريّات الفقهيّة، واستنباطها من دلالات آيات الكتاب أو بناء تلك

[1] – راجع كتابنا: الوحدة البنائية للقرآن المجيد. القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٦.

النظريات والاستشهاد لها بآيات الكتاب فبدأ الفقه يمتد وينتشر ليهيمن على جميع مناحي الحياة، ولو أنَّ «**جيل الفقه**» أرسى دعائم ذلك الفهم الاستنباطيّ وأصّل له، وتجاوز قراءته الجزئيَّة الخاصة «**بآيات الأحكام**» —وحدها- أو اتّخاذ الآيات القرآنيَّة شواهد لتغيُّر وضع «**الفقه وأصوله**». ولأخذ «**مدخل القراءة الفقهيَّة**» منحى آخر؛ لأنَّه لو حدث ذلك لخرج الفقيه إلى رحاب القرآن الكريم الواسعة، ولوجد نفسه يتجه باستمرار نحو «**الفقه الأكبر**» في القرآن. ولأدرك أنَّ القرآن منشئ بكلّيته والسنَّة منهج ضابط يعصم الذهن عن الخطأ في فهم القرآن، وسلامة اتّباعه وتأويله وتطبيقه في الواقع، وبيان ذلك في سائر مستويات البيان. وذلك في كلّياتها، وأما جزئيّاتها فتستطيع أن تقدم «**فقهًا نبويًّا أكبر**» لا ينفصل عن القرآن، بل يصدّق القرآن عليه ويهيمن. ويجمع الفقيه- بعد ذلك بين القراءتين، دون أن يحتاج إلى مد مصادر الفقه، واستمراره بالإضافة عليها في كل عصر حتى بلغت الآن ما يزيد على خمسين أصلا**!!**

فيما مر ذكرنا تقسيمًا لأجيال الأمة منذ عصر رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلّم - حتى عصر أئمة الفقه المجتهدين، وقلنا: إنَّها ثلاثة أجيال: «**جيل التلقي**»: الَّذي عاصر رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلّم- و«**جيل الرواية**»: الَّذي تلى هذا العصر، ونقل ما ورثه من روايات سواء فيما يتعلق بنقل القرآن الكريم ولغته، وما ذكره رسول الله من بيانه وتفسيره، وتطبيقات رسول الله لمحكم آياته التي تمثّل تأويله لكتاب الله في الواقع وتفعيله فيه. فرسول الله «**كان خلقه القرآن**»[1] وكانت عبادته تفسيرًا وتطبيقًا لما جاء في القرآن الكريم، وكذلك معاملاته وعلاقاته وسائر جوانب سيرته العطرة صلى الله عليه وآله وسلّم. فنقل ذلك الجيل الثاني- جيل الرواية- كل ذلك لتطلع الأجيال الطالعة على تلك الروايات وتلم بما كان في حياة رسول الله وحياة كبار أصحابه، فكانت عمليّة الرواية وتناول المرويّات والتفصيل فيها بمثابة «**المنهج**» —كما أكدنا- فلم يكن يغادر صغيرة ولا كبيرة من حياة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلّم - وما أثر عنه إلا نقلها ورواها، فذلك هُوَ البديل عن «**المنهج**» في عمليّة حفظ المعرفة الموروثة، وعمليّة التهيئة لتناولها بالشكل المناسب. أمَّا «**جيل الفقه**»: فقد حاول أن يلبي الحاجة الفقهيَّة والتشريعيّة لكل ما استجد من

[1] - رواه الطبراني في معجمه الكبير، باب قطعة من المفقود، برقم (١٧٥٥)، من حديث عائشة رضى الله عنها، (٢٠/ ٢٥٥)، ورواه في الأوسط برقم (٧٢)، (١/ ٧٥) ورواه البيهقي في دلائل النبوة برقم (٢٤٤)، (١/ ٢٧٧)، وفي شعب الإيمان برقم (١٤١٠)، (٣/ ٢٦٤)، كما رواه الطحاوي في مشكل الآثار برقم (٢٧٩٢)، (٤٧٨/٩)، قال البيهقي: لا يُرْوَى عَنْ أَبِي الدَّردَاءِ، عَنْ عائِشَةَ إلا بِهذَا الإسْنادِ، تَفَرَّدَ بِهِ: زَيْدُ بن وَاقدٍ. وقد سبق أن بينّا أنّه لم يصح إسناده، وإن صح معنى متنه.

قضايا، وأن يجيب على سائر الأسئلة التي كانت البيئة تطرحها وتثيرها، بل ويفترض ما قد يبرز من قضايا في المستقبل، ويهيئ لها فتاوى أو إجابات مسبقة.

وأوضحنا أنّ تُتبع ذلك ودراسته، يرشدنا إلى مدخلين أساسيّين من مداخل تدبّر القرآن الكريم ومقاربته تقدم ذكرهما. ولكل من المدخلين مزاياه، وطرائق مقاربته للقرآن الكريم، وتدبّره.

وقد نشأت بعد ذلك مدارس غير المدارس الفقهية، كشفت عن مداخل أخرى، كالمدخل البلاغيّ لخدمة قضايا إعجاز القرآن. والمدخل الموضوعيّ والعقليّ والإشاريّ والتاريخيّ والعمرانيّ. فما الَّذِي يمكن لعصرنا هذا أن يضيفه إلى تلك المداخل؟ وما الَّذِي يمكن أن يضيفه إلى كل منها؟! وكيف يقوم بتفعيلها وتدريب المشتغلين في المجال الفقهيّ على توظيفها في معالجة مستجدات العصر؟!! لا شك أنَّ المجال متّسع لتطوير المداخل الموروثة - كلها - كما أنّ القدرة على الكشف عن مداخل إضافيّة قدرة يمكن لمكنون القرآن أن يكشف عنها. والسقف المعرفيّ المعاصر يستطيع أن يقدّم الكثير في هذا الصدد.

التدبر ومداخله المعاصرة:

مدخل التعبُّد

وذلك بأن يقصد قارئ القرآن، أو مستمعه العبادة بالقراءة وتدبّرها. طمعًا فيما وعد الله عليه من الثواب: ففي الحديث: «**قال النبي -صلى الله عليه وآله وسلّم-: إنَّ هذا القرآن مأدبة الله فاقبلوا مأدبته ما استطعتم، إنَّ هذا القرآن حبل الله والنور المبين والشفاء النافع عصمة لمن تمسّك به، ونجاة لمن اتّبعه، لا يزيغ فيستعتب، ولا يعوج فيقوم، ولا تنقضي عجائبه، ولا يخلق من كثرة الردّ. اتلوه فإنَّ الله يأجركم على تلاوته كل حرف عشر حسنات أما إنّي لا أقول ألم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف**»[١].

---

[١] الحديث أخرجه الحاكم عن ابن مسعود على ما في الفتح الكبير (٤٢٥/١). وحذار أن تفهم أن القراءة اللفظية غير الواعية أو المتدبرة هي مصدر هذا الثواب وأنك حين تتوقف لتدبر آيات وقتا طويلا أو قصير؛ ليس لك في ذلك ثواب، وأن (عداد الثواب) سيتوقف.

إن الله تبارك وتعالى يثيبك على التدبر وعلى القراءة _معا_ وهو سبحانه صاحب الفضل العظيم العميم ولو قضيت يوما في تدبر آية أو أياما وليالي فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا، وهو سبحانه سريع الحساب، فلا يخدعنك الشيطان ويصرفك بذلك التدبر إلى قراءة (الهذرمة) طمعا في كثرة الختمات وزيادة الحسنات.

مدخل القيم:

والذي نعنيه بمدخل القيم[1]؛ أننّا لو استقرأنا آيات الكتاب الحكيم —كلها- وأخذناها من «**سورة الفاتحة**» إلى «**سورة الناس**»، وقمنا بدراستها وتحليلها عدة مرات، محاولين حصر «**المقاصد والقيم العليا الحاكمة**» التي جاء القرآن المجيد من أجل إرساء دعائمها، فما الَّذي نجد؟ نجدها ثلاثة في حدود ما وصلنا إليه.

١. القيمة العليا الأولى: «التوحيد».

أي: الإيمان بوحدانيَّة الله- تبارك وتعالى- في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله، وتوحيده توحيد ألوهيَّة وتوحيد ربوبيّة وتوحيد صفات، وجلّ سور القرآن الكريم- ونستطيع أن نقول تقريبًا كل السور التي نزلت في مكة وجزء كبير مما نزل في المدينة المنورة- وجّه نحو هذه القيمة العليا ومحاولة إبرازها وإظهارها باعتبارها أهم ما نزل الوحي به، وجاء به المرسلون[2].

٢. القيمة العليا الثانية: «التزكية».

أي: تزكية الإنسان لنفسه والتحلّي بالطهارة الشاملة، و«**التزكية**» قيمة عليا، وفي الوقت نفسه تعتبر «**التزكية**» أهم مؤهلات الإنسان للقيام بالوفاء بالعهد وبعمليّة الاستخلاف وأداء الأمانة، والنجاح في مهمة الابتلاء، فالإنسان الَّذي لم يقم بتزكية نفسه ولم يتحلَّ بصفة «**التزكية**» يفقد أهم المؤهلات التي تؤهله إلى أن يقوم بالوفاء بالعهد مع الله- تبارك وتعالى- **[وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ]** (الأعراف:١٧٢ -١٧٣). أو أداء مهام الاستخلاف على وجهها **[وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي**

---

[1] - الفرق بين القيمة والمقصد: الأصل في «القيمة» أنّها شئ أو شأن به قيام أو قوام أى ما يقوم به شئ آخر وبسند كالعماد والسناد، وذلك يستدعى أن يكون لها من يقوم عليها أى يحفظها لأهميتها، فهو قائم على كل نفس. وقيّوم بكل ما خلق- جل شأنه-. أما «المقصد» فهو من «القصد» بمعنى استقامة الطريق أو الوجهة. ومنه «الاقتصاد» وهو نوعان محمود باطلاق إذا كان له طرفان: افراط وتفريط كالجود والشجاعة. والثاني: يقع بين المدح والذم. و«المقصد» تجرى «القصد» أى الوجهة الصحيحة، أو غيرها . وانظر المفردات للأصبهاني.

[2] - وراجع العلواني، التوحيد والتزكية والعمران (بيروت: دار الهدي، ٢٠٠٣). وطبعته المعدلة عن المعهد العالميّ للفكر الإسلاميّ.

الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ] (البقرة: ٣٠)، فالله - تبارك وتعالى - يعلم أنَّ هذا الإنسان قابل بفطرته وخلقته على أن يقوم بعمليّة «**التزكية**» لنفسه أو التدسية لها والانحراف بها. والإنسان الَّذي لا يتحلَّى «**بالتزكية**» ولا يكتسب هذه الصفة، لا يصلح للوفاء بالأمانة **[إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا]** (الأحزاب: ٧٢)، والإنسان الَّذي لا يتحلّى «**بالتزكية**» ولم يتمكن منها ولم يحقق تزكية نفسه، أو توقف عن القيام بذلك إنسان لا يمكن أن ينجح في مهمة الابتلاء **[الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ]** (الملك: ٢)، إذن فالوفاء بالعهد، والقيام بمهمة الاستخلاف والوفاء بالأمانة وأدائها والقيام بها، والنجاح في اختبار الابتلاء، والقيام بعمليّة «**العمران**» التي سنأتي إليها، كل تلك الأمور تتوقف على أن يكون هذا الإنسان إنسانًا مزكّى؛ يتحلى بالتزكية التامّة، «**تزكية النفس والقلب والبيئة والأسرة والخلق والبدن والمال**» وغير ذلك؛ ولذلك حين يشير رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلّم- في حديث شريف إلى «**أن من أكل لقمة من حرام لا يرفع دعاؤه إلى الله - تعالى - أربعين يومًا**»[1]، فتلك إشارة مهمة جدًا، لأنَّ هذا الإنسان الَّذي سخّر الله الكون له، وكلّف بعمرانه إذا خان نفسه وأطعمها الحرام، فمن الصعب جدًا أن يرفع يديه إلى الله - تبارك وتعالى - بالدعاء، ويجد منه - سبحانه وتعالى - الاستجابة والقبول وقد أبى أن يستجيب لربه، وإذا خان نفسه وأطعمها الحرام فهو لغيرها أخون كذلك. وهناك حديث آخر صحيح جاء فيه «**دخلت امرأة النار في هرة حبستها لا هِيَ أطعمتها ولا هِيَ تركتها تأكل من خشاش الأرض**»[2] ما الَّذي نستفيده من هذا الحديث؟ البعض يقول: هذا من رعاية الإسلام للحيوان والرفق به، أن تدخل امرأة النار لأنها حبست قطة حتى ماتت وهو فهم قريب، وبعضهم قد يقول فيه شيئًا آخر، لكن ما يمكن أن يهدينا إليه النظر والتدبُّر والتأمّل في أمر «**التزكية**»، أنّ هذه المرأة قد خانت «**أمانة الاستخلاف**»، خانت ما ائتمنها الله - تبارك وتعالى - عليه من خلقه؛ فهي بانتمائها إلى النوع البشريّ المستخلف في هذه

(١) - مجمع الزوائد باب فيمن أكل حلالا أو حراما، والحديث عن ابن عباس قال تليت هذه الآية عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم (يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا) فقام سعد بن أبي وقاص فقال يا رسول الله ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم يا سعد أطب مطعمك تكن متسجاب الدعوة والذي نفس محمد بيده إن العبد يقذف اللقمة الحرام في جوفه ما يتقبل منه العمل أربعين يوما وأيما عبد نبت لحمه من سحت فالنار أولى به، رواه الطبراني في الصغير وفيه من لم أعرفهم (١٠ / ٢٩١).

(٢) - الحديث رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، برقم ٣٢٢٣، (٣٠١/١١)، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

ما ائتمنها الله - تبارك وتعالى - عليه من خلقه؛ فهي بانتمائها إلى النوع البشريّ المستخلف في هذه الأرض مسئولة عن جميع المسخَّرات، ومنها الأرض وما فيها، ومنها هذه المخلوقات الضعيفة، فلها أن تستثمر هذه المسخَّرات، وتستفيد بها، وتحسن توظيفها وتضمها إلى قافلة التسبيح؛ القافلة الكبرى التي تسبح بحمد الله - تبارك وتعالى - وبدلا من أن تفعل المرأة المشار إليها ذلك خانت أمانتها فحبست هذا الحيوان المسكين، الَّذِي كان عليها أن ترعاه، وتحافظ عليه، فلم تفعل، لكنَّها حبستها وحرمتها الطعام والشراب حتى ماتت.

في هذا الأمر نستطيع أن ندرك أثر «**التزكية**» في عمليّة العمران والمحافظة على الكون والمحافظة على البيئة والطبيعة، ولذلك ينبه البارئ - سبحانه وتعالى - إلى أنّ الأرض قد تكون هامدة وقد تكون ميتة، والإنسان مسئول عن إحيائها، وتهيئتها لما خلقت له **[وَآيَةٌ لَهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ]** (يس:٣٣)، ما الإحياء؟ الإحياء: أن نعمرها، أن نزرعها، وأن نستثمرها، نأخذ منها ما خلقت من أجله، لأنَّ ذلك هُوَ عبادتها لله - سبحانه وتعالى - وتعبيرها عن الخضوع له **[وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ]** (الرَّحمن:٦)، سجود هذه الأشياء هُوَ عبادتها وذلك أن نأخذ منها ما خلقت من أجله، ولذلك أمر رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلّم- بإحياء ما عرفه الفقهاء «**بإحياء الموات**» أخذًا من القرآن الكريم أنَّ الأرض حينما تهملها فلا تزرعها ولا تستثمرها، ولا تسكن فيها فإنَّ ذلك يعد من الإفساد فيها، ومن الإماتة لها، ومهمتك الاستخلافيّة هِيَ الإحياء لا الإماتة؛ ولذلك عقد الفقهاء أبوابًا أطلقوا عليها أبواب «**إحياء الموات**»؛ أي: الأرض المهجورة المتروكة التي لا تستثمر، لأنَّ مهمة الإنسان في هذه الحياة هِيَ استثمار هذه المسخَّرات؛ وأخذ أحسن ما خلقت له منها، وحمايتها من أجل أن تكون كافية للبشر. إحياؤها واجب أولئك الذين يستطيعون القيام بذلك. وأداء هذا النوع من المهام تزكية للإنسان الَّذِي يقوم بهذه المهام، الإنسان الَّذِي يتحلى بصفة «**التزكية**»، وبصفة الطهارة هُوَ الَّذِي يصلح لهذه المهام. أمَّا الإنسان الَّذِي دسَّى نفسه، وأهمل نفسه فهو لغيرها أكثر إهمالا، ومثله لا يؤتمن على نفسه، فأنّى له أن يؤتمن على الكون، أو يؤتمن على الأرض، أو يحقق العمران فيها؟!!

٣. القيمة العليا الثالثة: «العمران»:

التي جاء القرآن الكريم بها، وعززها حتى صارت تمثل محورًا من أهم محاوره، أو من قيمه العليا الحاكمة، وقد أشرت في إطار «**التزكية**» إلى بعض جوانب العمران، ولكن ما الَّذِي نريده بالعمران؟

العمران: هُوَ بناء حضارة، ولكن ليس المراد مطلق حضارة، بل بناء حضارة قائمة على قيم، تعزز القيم التي جاء القرآن المجيد بها، وتنبثق عنها، وأهمها القيمتان السابقتان قيمة «**التوحيد**» وقيمة «**التزكية**». فالحضارة مشروع عمرانيّ إلهيٌّ، استخلفنا الله - تبارك وتعالى - في هذه الأرض لتحقيقها، ولا يمكن أن نحققها إذا كنَّا متخلفين لا ندرك سنن الطبيعة، ولا كيفيَّة التعامل معها، ولا ندرك ما في الكون، ولا كيفيَّة التعامل معه، وإذا سخر أحد لك شيئًا كأن قدّم لك سيارة مثلا ووضعها على باب دارك وقال لك: هذه المفاتيح وتصرّف، فلم تتصرف ولم تقدّر السيارة ولم تتحرك بها، ولم تستخدمها، فماذا يعني ذلك؟ يعني؛ أنك أهملتها، أنك لم تستفد بها، ولم تدع غيرك يستفيد بها فلا قيمة لتسخيرها لك. فإذا كان الله - تبارك وتعالى - من ناحية قد قام بعمليّة التسخير، وسخر لنا كل شيء من أجل إنجاز هذا المشروع؛ مشروع العمران وبناء حضارة مصحوبة ومحكومة بالقيم التي تتغلغل فيها، ثم أهملنا ذلك كلّه فلم نبن حضارة ولم نحقق عمرانًا، فذلك يعني أنّنا أخللنا بالقيمة العليا الثالثة، ألا وهي «**قيمة العمران**» ولم نستطع أن ندرك أن «**العمران والحضارة مشروع إلهيٌّ**» ما خلقنا إلا من أجله وأنّه يمثّل العبادة الإنسانيَّة بأجلّ معانيها «**فالعمران**» هُوَ مقصود العبادة الحقيقية للأمة العابدة، أو جزءًا مهمًّا منها، والله - تبارك وتعالى - حين يقول **[تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا]** (الإسراء: ٤٤)، فيسبح له الشجر والحجر والماء والسماء والقمر والنجوم وسواها بالشكل التلقائي؛ أي: إنّ الله -سبحانه وتعالى- قد سخرها لذلك، وجعل الإنسان سيدها، وهو المستفيد من عمليّة تسخيرها له، لأنّه كلّف وحمل أمانة الاختيار، فقد منحه الله –تعالى- القدرة على الاختيار، وعلى الرد وعلى الفعل وعلى الترك، في حين لا تملك المخلوقات الباقية المسخّرة إلا أن تفعل ما خلقت من أجله إذا استثمرها الإنسان، فإذا لم يستثمر الإنسان الأرض ولم يُقم: العمران، ولم يحقق المشروع الإلهيّ بعمران الأرض، فذلك يعني أنّه قد خالف العهد بينه وبين الله، وخان الأمانة التي ائتمن عليها، ورسب في اختبار الابتلاء، وأخفق باستعمار الأرض التي أمره الله - تبارك وتعالى - أن يقوم به.

هذه القيم الثلاث أو المقاصد العليا: «**التوحيد، والتزكية، والعمران**» حينما ندخل إلى رحاب القرآن المجيد بعد استيعابها، وبعد فهمها متدبّرين له فذلك يعني أنّنا سندخل مزودين بما يعيننا على فهم ما نقرأ وعلى القدرة على تدبّر القرآن الكريم تدبّرًا يجعلنا قادرين على الوصول إلى كثير من معانيه في حدود السقف

المعرفّي الذين نعيشه ونحياه، وفي حدود إمكاناتنا وقابليتنا للتلقي وقوة تدبّرنا؛ فنحن مهما نكن نبقى بشرًا نسبيِّين والقرآن المجيد كتاب مطلق وكتاب كونّي.

مدخل الوحدة البنائيّة للقرآن:

وهو يعني أن يدخل القارئ إلى رحاب القرآن المجيد وهو مؤمن بأنّه داخل إلى كتاب هُوَ بمثابة الجملة الواحدة، أو الكلمة الواحدة، وليس إلى كتاب مجزأ تمثل كل آية أو كلمة منه «**وحدة مستقلة**» عن الوحدات الأخرى وهذا أمر مهم في مجال التدبُّر، فعلماؤنا - فيما مر - ناقشوا هذا الأمر كثيرًا، وهم يواجهون اعتراضات حول أسلوب القرآن المجيد، فالقرآن كما كان وما زال من لا خلاق لهم يعترضون عليه، أنَّه قد يذكر آية تتعلق بالدار الآخرة ويتلوها بآية أخرى تتعلق بالعبادة، وبالدين جملة أو بقصة من قصص الأنبياء، أو بحديث عن قوم من الأقوام، أو مشهد من مشاهد القيامة، ولذلك توهّم بعض المستشرقين أنّ القرآن المجيد لا يتّصف بصفة الترابط بين آياته وسوره، فهذه الآيات الكريمة تتنوع تناولاتها وموضوعاتها تنوعًا شديدًا؛ ذلك لأنَّهم لم يدركوا وحدة القرآن الكريم التي سمَّيناها «**بالوحدة البنائيَّة**».

وهذا الأمر قد ناقشه الجاحظ وغيره قديمًا وتلاهم - بعد ذلك - أَبُو علي الفارسي[1]، وهو من علماء القرن الخامس الهجريّ ومن أئمة القراءات والعربيَّة، يقول وقد نوقش حول خبر لجملة بدأت بـــ «**لا النافية للجنس**» زعم مناقشه أنّه لم يكن موجودًا في السورة نفسها؛ أي: «**الخبر**» فيرد أَبُو علي الفارسي على المعترض بقوله: «**ألا تعلم أنَّ القرآن الكريم كالكلمة الواحدة، وأنّ هذا الخبر قد ورد في سورة كذا، الآية كذا. وأنَّ هذا الأمر غير مألوف في أساليب العرب، ولكن للقرآن المجيد لغته الخاصّة، فهو في بنائه موحّد وكأنَّه جملة واحدة بل كلمة واحدة**»[2]. ويقول الشاطبي[3]: (... إنّ السورة مهما تعددت قضاياها

---

[1] - راجع العلواني، الوحدة البنائية للقرآن المجيد (القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٦) وراجع كذلك ابن عاشور، ٣٧/١ المقدمة الثانية للاطلاع على ذلك ومعرفة موقف ابن عاشور منه.

[2] وقد كتب د. وليد منير كتابًا في القرآن المجيد سماه «**من الجملة إلى العالم**»، فاعتبر الخطاب القرآني كأنَّه جملة واحدة موجهّة إلى العالم كلّه، وتخاطب العالم كله، وإن تعددت الأغراض، وتنوعت المحاور؛ فتعدد المحاور وتنوُّع الأغراض لا يخلّ بهذه الوحدة التي نؤكد عليها.

[3] هو الإمام المجدد، الناصر للسنة: أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي نسباً، المالكي مذهباً، الشاطبي ثم الغرناطي مولداً نحو سنة ٧٣٠ ووفاة سنة ٧٩٠، وهو أستاذ غرناطة في جامعها الأعظم في القراءات، والحديث وعلومه، والفقه وأصوله، والنحو ولسان العرب. **من أشهر مؤلفاته الموافقات والإعتصام**. انظر: الشاطبي، الموافقات، تحقيق: مشهور آل سلمان (الرياض:دار بن القيم والقاهرة: دار ابن عفان، ٢٠٠٦) ٧-٨.

فهي كلام واحد كما تتعلق الجمل ببعضها في القضيّة الواحدة وأنَّه لا غنى لمتفهم نظم السورة عن استيفاء النظر في جميعها، كما لا غنى عن ذلك في أجزاء القضيَّة)[١].

وهذه الوحدة هي «**الوحدة البنائيَّة**» تحتاج لإدراكها إلى الكشف عن الروابط والعلاقات بين الآيات والسور، وبين السور داخل القرآن المجيد، وهذه العلاقات والروابط المتنوعة والمتشعبة علاقات يمكن للباحث المرتِّل المتدبّر أن يكشف عن بعضها، ليدرك طبيعة العلاقات بين آية وأخرى، وبين نجم قرآنّي وآخر، وقد تناول بعض العلماء بعض السور، لينبهوا إلى هذه الوحدة. وقد أبدع الدكتور مُحَمَّد عبد الله دراز[٢] (١٣٧٧هـ) يرحمه الله في كتابه «**النبأ العظيم**» حينما أخذ سورة البقرة على سبيل المثال مع اختلاف نجومها ومع تنوع موضوعاتها ومع طولها وتعدد آياتها، وكونها أطول سور القرآن المجيد، وأثبت أنَّ هناك وحدة وترابطًا يقوم بين جميع الآيات في هذه السور، وقد قمت بمحاولة مماثلة حول السورة نفسها من مدخل آخر في الموضوع الَّذي كتبته حول «**الوحدة البنائيّة**».

فحين ندخل القرآن المجيد أو ندخل إلى رحابه واضعين في أذهاننا أنّنا ندخل إلى رحاب جملة واحدة، أو كلمة واحدة، نجهد أنفسنا وعقولنا وأذهاننا في محاولة الكشف عن شبكة العلاقات والروابط القائمة بين الآيات داخل السورة، والسور داخل القرآن، والكلمات داخل الآية نفسها، نستطيع أن ندرك أهميّة النظر والتدبُّر في القرآن الكريم والنظر العقليّ فيه وتلاوته حق التلاوة، ونحن مستصحبون لهذا المدخل يمنحنا الكثير. ولذلك فنحن نحذر الباحثين في قضايا القرآن أن يدخلوا إليه بشكل انتقائي أو أن يقتحموا عالمه بموضوعات معينّة يحاولون أن يقوموا بما تعارف عليه بعض الباحثين بأنَّه «تكشيف آيات» حسب المواضيع في الاقتصاد أو السياسة أو الشورى أو الجهاد أو نحو ذلك، فهذا الأمر غير مجد للباحث في هذا المجال، فالباحث لا بد له من أن ينظر للقرآن في كليّته وفي «**وحدته البنائيّة**» ويقوم بسياحته التدبُّريّة في أركانه كلها.

---

[١] راجع الشاطبي، ٤/٢٧٤.

[٢] هو محمد بن عبد الله دراز فقيه أديب، كان من هيئة كبار العلماء بالأزهر، وُلِدَ بمحل دياري دسوق، وتعلم بالإسكندرية ودرس بها وبالأزهر، اختير عضوًا باللجنة العليا لسياسة التعليم، وفي لجنة الإذاعة وفي اللجنة الاستشارية الثقافية في الأزهر، وافته المنية بمدينة لاهور بباكستان، حيث كان يمثل مصر في المؤتمر العلمي الإسلاميّ، من مؤلفاته (تفسير آيات الآحكام) بالاشتراك مع درويش، هذا وقد كانت وفاة دراز سنة ١٣٧٧ هجرية وله مؤلفات هامّة أخرى منها «الدين» و«دستور الأخلاق في القرآن».

ولقد أدرك بعض أئمتنا المتقدمين خطورة ما قام به جمهرة الفقهاء خاصة من محاولة حصر آيات الأحكام برقم معيَّن أو بعدد معيَّن لأنَّهم أخضعوا الأمر لقواعد الأمر والنهي وما إلى ذلك، ليقولوا: إنَّ آيات الأحكام أربعين أو ثلاثمائة أو أقل أو خمسمائة أو غير ذلك من الأرقام، فقال الإمام الشافعي رحمه الله: «**ألا وإنّ في الأمثال أحكامًا كثيرة**»[1] ومعروف أنَّ كثيرًا من الفقهاء قد استنبطوا كثيرًا من أحكام الأسئلة الفقهيَّة من قصص القرآن الكريم ومن أمثاله وما إليها، فعمليّة الدخول بتصور التجزئة إلى بنائيَّة القرآن الكريم قد يحوله إلى مجرّد شواهد يستشهد بها الباحثون لأمور كانوا قد وصلوا إليها أو قرروها خارجه، ومعظم ما يؤخذ على بعض الأصوليين أنَّهم بدلا من أن يأخذوا القرآن بكلّيته أو «**بوحدته البنائيّة**» ليلتسموا فيه الأحكام فإنَّهم اتخذوا من بعض آياته شواهد لما ذهبوا إليه، بدلا من أن يصدروا عنها ابتداءً باعتبارها أدلة.

والقرآن كما نعلم ونقرر، وكما وصفه البارئ تعالى له الحكم؛ أي: هُوَ المصدر المنشئ للأحكام، وليس المصدر الَّذي تنشأ الأحكام خارجه، ويطلب منه أن يرفضها أو يؤيدها أو يكون شاهدًا عليها **[أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ]** (آل عمران:٢٣). من هنا أخذ بعض أهل العلم على بعض أئمة الأصول أنَّهم قد قالوا «**بالقياس**» قبل أن يعرفوا له دليلا من القرآن الكريم، وحين جودلوا ونوقشوا فيما ذهبوا إليه من «**حجيَّة القياس**»، ذهبوا يبحثون عن دليل في القرآن فوجدوا في «**سورة الحشر**» **[هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ (٢) وَلَوْلا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ]** (الحشر:٢)، فاعتبروا يا أولي الأبصار فأخذوا هذا الجزء من الآية وقالوا: إنَّ القياس عبور من حكم الأصل إلى حكم الفرع، فإذن نحن مأمورون بالقياس بمقتضى هذه الآية وبعض الأئمة قبله ووجد فيه تكثيرًا لما يستفاد من ألفاظ القرآن الكريم في أوضاعها المختلفة، وبعضهم رفضه واستبعده، والاستدلال بهذه الطريقة على هذا الأمر يعتبر استدلالا ضعيفًا ليس له ما يؤيده أو يعضّده، ولذلك انتقد عليهم.

[1] - لعله مرّ في أحكام القرآن الذي جمعه البيهقي أو في آداب الشافعي ومناقبه.

وقد نسب إلى الإمام الشافعي - رحمه الله - أنّه بعد أن قرر «**حجيَّة الإجماع**» نوقش في الأمر وطولب بإيراد دليل على هذه الحجيَّة، ويروى عنه أنه قد قرأ القرآن المجيد مرات ثلاثة بحثًا عن حجة يُسند بها قوله «**بحجيّة الإجماع**»، فكان أن قرأ قول الله تعالى: **[وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا]** (النساء:١١٥)[١]، قال: إذن فالإجماع سبيل المؤمنين ومخالف الإجماع مشاق للمؤمنين مخالف لسبيلهم، متخذ لسواه، وبالتالي فإنّ الوعيد المذكور بالآية الكريمة: **[وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا]** (النساء:١١٥) يتناول منكر «**حجيَّة الإجماع**».

وقد أخذ على الإمام هذا لأنّ فيه تكلفًا، ولأنّ فيه دلالة على أنّ الإمام قد قال بالحجيّة قبل أن يذهب إلى القرآن الكريم ويبحث فيه عما يمكن أن يكون قد تعرّض له فيما يتعلق بهذا المجال؛ مجال القول بإجماع الأمَّة، وحجيّة هذا الإجماع، بدلا من أن يقول بالحجيّة، ثم يبحث عن الدليل. ولذلك كان في ذلك الاستدلال مجال للنظر إن صحت هذه الرواية عنه.

وقد كتب بعض الباحثين دراسة جيدة حول اتخاذ الأصوليين أو جمهرتهم لآيات الكتاب الكريم ولسنن المصطفى -صلى الله عليه وآله وسلّم- شواهد بدلا من أن يتخذوا القرآن مصدرًا منشأً، ويتخذوا من السنة النبويَة مصدرًا مبّينًا لذلك بتأويل وتفعيل في الواقع[٢]؛ ولذلك فإنّ ملاحظة «**وحدة القرآن البنائيَّة**» في ميدان «**التدبُّر**» سوف تكون مدخلا لا غنى عنه لمن يريد تدبّر القرآن فبهذا المدخل نقرأ القرآن في كليّته، وهذا المدخل على صعوبته لكن فوائده عند التجربة لا تنحصر. فقد يقتضي هذا المدخل أن نقرأ القرآن مرات عديدة من أجل أن نصل إلى إدراك يعيننا على تقديم رؤية قرآنيّة في مسألة من المسائل، وهناك فوائد لا تحصى يجنيها المتدبّر وهو يمارس التدبُّر بهذا المدخل فلا ينبغي لأحد أن يأتي إلى القرآن محمَّلا بآراء وأفكار وحلول، ليبحث فيه عما يعضّد ما ذهب إليه، وما تبنّاه فيحرم نفسه من فيض القرآن وكرمه وعطاءه.

---

[١] - راجع: للفخر الرازيّ، مناقب الشافعي. و المحصول في علم أصول الفقه ٤/ ٣٥- ٦٦. حيث ناقش الاستدلال بهذه الآية على «حجيَّة الاجماع» مناقشة لم أطلع على مثلها عند سواه. .

[٢] - هو أخونا أ.د. عياض السلميّ في دراسته «استدلال الأصوليّين بالكتاب والسنة» ط الرياض.

مدخل عمود السورة

وهو مدخل يأخذ بيد المتدبّر وهو يمارس التدبُّر بهذا المدخل الانطلاق من «**وحدة السورة**»، فالسورة من القرآن لها «**وحدتها البنائيّة الخاصّة بها**»، ضمن الوحدة البنائيَّة للقرآن المجيد فإدراك الوحدة البنائية للسورة، والكشف عن معانيها، وإبراز وحدتها، يقتضي منّا أن نلج رحابها ونحن مؤمنون بوحدتها، وإيماننا بوحدتها يجعلنا نبحث عن «**عمودها الأساس**» فلكل سورة عمود؛ لأنَّ السورة بمثابة بيت كبير، له دعامة أساسيّة أو عمود يقوم البيت عليها تحيط بهذه الدعامة الأساسيّة دعامات أو أوتاد فرعيَّة بالنسبة للعمود الأساس من شأنها أن تحيط بهذا العمود الأساس لتتضافر معه في تشكيل بنية السورة. فالباحث إذا دخل إلى رحاب سورة مّا من سور القرآن الكريم وهو مؤمن بوحدتها، مدرك أنّها تحمل عمودًا، أو أنّ هناك عمودًا يحملها، ففي هذه الحالة سوف يدرك معاني السورة جملة بالكشف عن ذلك العمود.

والكشف عن عمود السورة يوجد ألفة بين المتدبّر وبينها، لأنَّه حين يكتشف عمودها الأساس ويكون قد كشف عن محورها وموضوعها الأهم، والموضوعات الفرعيَّة التي تحيط بذلك العمود؛ ودورها في إسناده، ودورها في توضيحه، وإعطاء القارئ الباحث المتدبّر من كرم القرآن الكريم ما يمكن له أن يستوعبه. فعمود السورة في هذه الحالة سيكون عونًا للباحث ومرشدًا له للوصول إلى أهم معانيه[١]، ونبه إلى ذلك الشيخ أمين الخولي[٢] - رحمه الله - كما نبَّه المتقدمون إلى ذلك وفي مقدمتهم علماء البلاغة والنحو، وقليل من المفسّرين الذين تنبهوا إلى هذا الأمر واهتموا به الاهتمام المناسب.

وهناك مدخل آخر يجدر بنا أن نتعرض له في هذا المجال وهو قريب مما ذكرنا في مدخل السورة، والكشف عن عمودها وعن الأوتاد المحيطة بهذا العمود، وهو ما يعرف:

مدخل التصنيف الموضوعيّ:

فنحن حين نتدبّر القرآن الكريم ونجيل أفكارنا في الموضوعات التفصيليَّة التي تناولها ونمرن أنفسنا على تحديد موضوعات مثل «**الإيمان والكفر والشرك والنفاق والحق والباطل والصلاة والعلم والإصلاح**

---

(١) وقد كتب في ذلك المعلّم عبد الحميد الفراهي في كتابه «الفرقان في تفسير بالقرآن بالقرآن». ط. الهند عليكر مكتبة الإصلاحي من علماء الهند - رحمه الله.

(٢) في دراسته عن القرآن الكريم ، في سلسلة التنوير الإسلاميّ (٥١).

والإفساد» وما إليها... ثم نبدأ بقراءة القرآن –كلّه- دون الاقتصار على قراءة الآيات التي وردت هذه الكلمات المفتاحيّة فيها، وبعد القراءة الشاملة المتدبّرة نرصد ونحن نقرأ القرآن في كليّته تلك الآيات التي وردت فيها هذه الموضوعات، ونقوم باستقرائها وتتبّعها ومعرفة ما سبق ذكر تلك الآية التي تعتبر نصًا في الموضوع وما لحقها للكشف عن سياقها وما يمكن أن يعطينا ذلك من إضافات ومؤشّرات تساعدنا على فهم الموضوع في كليّته دون الوقوع في عمليّة التجزئة، ودون السقوط فيما سقط به بعض أولئك الذين تتبّعوا آيات معيَّنة واقتطعوها من سياقها فتخبطوا في عمليّة فهمها أو الوصول إلى معانيها، فإذا قمنا بذلك وجمعنا ما يتعلَّق بموضوعات «**الإيمان أو الكفر أو النفاق**» أو أي مفتاح أو مفهوم نبحث عنه، فليس لنا أن نتوقف عن التأمُّل والتدبُّر في القرآن الكريم في كليّته وتدبّر الآيات الواردة في الموضوع في إطار وحدته، وبالتأمل فيها بمستويات قربها وبعدها عن الموضوع وسوف نجد أنفسنا - آنذاك - مشدودين شئنا أم أبينا إلى إعادة النظر المستمر في القرآن الكريم؛ في كليّته ووحدته مرارًا، وعدم الوقوف عند تلك الموضوعات، وأحيانًا سوف نجد ما يعزّز ما سبق لنا أن تناولناه من القول «**بالوحدة البنائيَّة، ووحدة السورة**»، وغير ذلك من المداخل التي تجعل القرآن الكريم يفتح علينا بكرمه، وقلوبنا وقوى وعينا –كلّها- تتفتح لتلقي فيوضاته وكرمه.

وممّا يُستأنس به أن الإمام الشافعي - رحمه الله - قد جمع له البيهقي ما سماه بأحكام القرآن وجاء بعدد من الآيات محدّد، هيَ التي اعتبرها الآيات التي استند الإمام الشافعي عليها في بناء أصوله وبناء فقهه. وعند التحقيق نجد الإمام الشافعي ينهى عن الاقتصار على ذلك العدد من الآيات، وينصح المجتهد بضرورة قراءة القرآن كله، فالأمثال فيها أحكام كثيرة وكذلك القصص كما تقدم فيها أحكام كثيرة، ولذلك فإنَّنا لا نستطيع أن نستنبط الحكم بالدقة المطلوبة، وأن نحيطه بالاجتهاد اللازم الَّذي نسميه «**بذل الفقيه الوسع حتى يعجز عن بذل المزيد**» بدون أن نرجع إلى القرآن المجيد في كليّته، ووحدتّه، دون إخراج الآيات من سياقها بحجة الموضوع.

مدخل البحث في «المناسبات»:

وهو مدخل مكمّل وإنَّ العلماء المتقدمين قد فرقوا كثيرًا بين المناسبات وبين الروابط والعلاقات التي نكتشفها مستعينين بآليّات النحو وقواعده وما إلى ذلك، فالقاضي ابن العربي يقول: «**علم المناسبات**

وارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني علم عظيم»، ويشير ابن العربي نفسه إلى أنّ هذا العلم لجلالة قدره وأهميّته ولدقته وحاجته إلى الكثير من الجهد مع توفيق الله تبارك وتعالى قد تحاشاه كثير من العلماء، ولم يدخلوا فيه وبعضهم دخل في بداياته ثم توقف، ويقول الإمام الرازي: «**من تأمل لطائف نظم السور وبديع ترتيبها علم أنَّ القرآن كما أنَّه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه هو - أيضًا - معجز بسبب ترتيبه ونظم آياته**» ويقول: «**أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط**». ويقول برهان الدين البقاعي وهو من أشهر من كتب في هذا وأعد تفسيرًا كاملا مطبوعًا في مجلدات ثمان في هذا الأمر، هُوَ «**نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**»، يقول: «**إنّ السورة وإن تعددت قضاياها فهي كلام واحد يتعلق آخره بأوله وأوله بآخره، ويترامى بجملته إلى غرض واحد كما تتعلق الجمل بعضها ببعض في القضية الواحدة، ولا غنى لمتفهم لنظم السورة عن استيفاء النظر في جميعها، كما لا غنى عن ذلك في أجزاء القضيَّة الواحدة**»، ويريد بذلك «**القضية المنطقيَّة**» التي هِيَ عبارة عن جملة واحدة.

فإذا عمدنا إلى القراءة المتدبّرة، بهذا المدخل مدخل المناسبات والبحث فيها وإدراكها، فإنَّ من الممكن أن نأخذ سورة من تلك السور التي تعددت نجومها وتنوعت موضوعاتها وكثرت معانيها، ثم نتلوها بتدبّر آية بعد آية، ومجموعة بعد أخرى، ونجمًا بعد آخر، ثم نتفكر في بدايتها ومسيرتها وانسيابها حتى نصل إلى خاتمتها، ثم نعود من الخاتمة إلى البداية، وننظر في العلاقات بين اسمها وتسويرها، لتكون سورة مستقلة، ثم علاقاتها بما قبلها وبما بعدها، وسنكشف شبكة من العلاقات بينها، تجعلنا نشعر أنَّها نزلت حين نزلت وكأنَّها نجم واحد أو كأنَّها نزلت مرة واحدة.

مدخل «عالم الغيب وعالم الشهادة»:

أي: أن يستحضر المتدبّر وهو داخل إلى رحاب القرآن هذين العالمين، وينظر في الآيات الكريمة متدبّرا مع حضور هذا المدخل في ذهنه فسيجد أنّه يستطيع أن يقول هذه المجموعة من الآيات تتعلق بعالم الغيب، وهذه تتعلق بعالم الشهادة، أو كما ذهب بعض المتقدمين إلى «**عالم الأمر وعالم الإرادة وعالم الخلق**»، فهذه عوالم ثلاثة يستطيع القارئ أن يستصحبها وأن يدخل إلى رحاب القرآن متدبّرا وهي حاضرة في ذهنه.

مدخل العلاقة بين الله تعالى وبين الإنسان والكون:

وهو تدبّر العلاقة بين الله - تبارك وتعالى - إلهًا وربًا وخالقًا وبين الإنسان مخلوقًا ومستخلفًا، وبين الكون مخلوقًا ومسخّرًا، ومحاولة معرفة الآيات في إطار هذه المداخل فستبدو للمتدبّر آيات تتعلق بعالم الأمر، وأخرى تتعلق بعالم الإرادة، وثالثة تتعلق بعالم الخلق، إلى غير ذلك.

فهذه النماذج من مداخل للتدبّر، ولعل الله يفتح على التالي من أجيالنا ومن يأتي بعدنا فيكتشفون من المداخل ما يعينون به أنفسهم وغيرهم على حسن التدبُّر وحسن القراءة، وتثوير القرآن المكنون، والوصول إلى بعض ما يكنّه في آياته. فإن القرآن المجيد كلام الله - تعالى - والكون - بكل شيء فيه - تعبير عن كلمات الله: [**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**] (يس: ٨٢).

مدخل الإلهيَّة والعبوديَّة

وهو من المداخل الموسَّعة التي يتمكن «**المتدبّر**» بها من معرفة ما يتعلق «**بالإلهيَّة والربوبيَّة**» من آيات كريمة في إلهيّات القرآن المعرِّفة بالله وبربوبيّته وصفاته، وأساليب القرآن المجيد في الاستدلال على إلهيَّة الله -سبحانه للعالمين، والاستدلال بأدلة «**الخلق والعناية والربوبيَّة والإبداع**» على وحدانيَّته -جل شأنه- في ذاته وصفاته وأفعاله. ومعرفة صفات المخلوقين وبيان أصل الخلق وتطوُّره، وافتقاره في سائر المراحل إلى الخالق العظيم -جل شأنه- لكيلا يتخذ الخلق بعضهم بعضًا أربابًا من دون الله. أو يتخذوا أحدًا من الخلق شريكًا له سبحانه في أيّ شيء، أو يشبّهه البعض -جل شأنه- بخلقه. ولكي يتبيّن الناس أركان العقيدة السليمة وأصولها كما جاء القرآن المجيد بها فلا يزيغ الإنسان ولا يضل ولا يشقى ويتبيَّن كذلك خصائص وصفات عباد الرحمن، وصفات وخصائص أتباع الشيطان.

مدخل عوالم الأمر والإرادة والمشيئة:

فهناك أمور اختص الله -تعالى- بها فكانت من عالم أمره: [**أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ**] (النحل: ١) فمن عالم الأمر كل ما يندرج تحت «**الغيب المطلق**» الَّذي استأثر -سبحانه وتعالى- بعلمه. ومنه ما سمّاه بعض المفسِّرين والمشتغلين «**بعلوم القرآن**» «**بالمتشابه**» مثل الأحرف المقطَّعة في أوائل السور، وآية الاستواء وما ورد فيه ذكر الجوارح مثل [**وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي**] (طه: ٣٩) [**يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ**] (الفتح: ١٠) [**وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ**] (الذاريات: ٤٧) فهذه كلّها تندرج تحت «**عالم الأمر**» الَّذي على المؤمن المتدبّر أن يلتزم بالإيمان به كما ورد. وإلا لتساوى «**الإيمان والعلم**

والمعرفة» والإيمان أوسع منهما وأتم؛ وقد أشار القرآن المجيد في آيات عديدة إلى انقسام الموجودات إلى هذه العوالم الثلاث في نحو قوله تعالى: **[إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ]** (النحل: ٤٠) وقوله: **[إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ]** (يس: ٨٢) «**فعالم الأمر**» عالم اختص الله - تعالى- به لا يخضع لتحليل أو تفكيك بشري؛ لأنّه متجاوز لقدرات «**العقل والعلم والمعرفة البشريَّة**» **[وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلا]** (الإسراء: ٨٥) وما يزال ما يجهله العقل والعلم البشريّان أكثر بكثير ممّا تعلّماه، وعرفاه. ووجود «**عالم الأمر**» بنماذجه في القرآن المجيد من شأنه أن يعزّز دواعي ودوافع الإيمان بالغيب، وإخلاص التسليم والإسلام له سبحانه.

وأمّا «**عالم الإرادة**» فيظهر في مثل الآيات التي تعلّقت بالعهد والاستخلاف والأمانة، وتكليف الإنسان بإعمار الأرض وإحياء مواتها، وإرسال الأنبياء ودعوتهم أقوامهم وإهلاك المعاندين، وابتلاء الناس بالعذاب الأدنى دون العذاب الأكبر كل ذلك يندرج في «**عالم الإرادة**» فهو عالم التدبيرات الإلهيَّة فالله - تعالى- لم يخلق السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمّى فاستعلاء الباطل وغروره لا يعني أنّ الإرادة الإلهيّة معطّلة، بل يعني أنّ التدابير الإلهيَّة، والإرادة الربانيَّة جارية لتأخذ مداها، وتعبر في الأجل الّذي يحدّده الله -جل شأنه- عن نفسها. والفرق بين «**الإرادة وعالم الإرادة وبين الجبر**» كبير جدًا فليتنبَّه له. وتندرج في عالم الإرادة «**السنن والقوانين الإلهيَّة كذلك**» مثل **[إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ]** (القصص: ٥٠) **[لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ]** (البقرة: ١٢٤) **[وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ]** (هود: ١١٧) **[إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ]** (الرعد: ١١) فذلك -كلّه- يستحضر «**المتدبّر**» معه جوانب «**الإرادة الإلهيَّة**» لكي يتعلّم من تدبّره في هذا الشأن كيف يستنصر «**بالسنن والقوانين والإرادة الإلهيّة**» فيجعل حركته دائرة معها وفي اتجاهها، لا في اتجاه معاكس لها، ثم يتوقع تحقق ما يريد. فكيف يتعلم «**المتدبّرون**» جعل تحركهم في الحياة كلّها مع حركة السنن الإلهيَّة الكونيَّة والاجتماعيَّة فيجدون إلى جانبهم الملائكة يبشرونهم بالنصر، وتحقق الآمال والأهداف قبل بروزها في الواقع مثلا؟! وقد ضل المشركون حين خلطوا بين عالمي الإرادة وعالم التشيُّؤ، فقالوا ما حكاه الله عنهم وفنّده: **[سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلا تَخْرُصُونَ**

(١٤٨) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ] (الأنعام:١٤٨-١٤٩) وقال جل شأنه: **[وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ]** (النحل:٩).

وأمّا «**عالم المشيئة**» فهو «**عالم الخلق والجعل والتحوُّل والانتقال والتشيُّؤ**» لأيّ شيء لم يكن قبل ذلك شيئًا مذكورًا ثم كان. فكل ما ذكره سبحانه من الأشياء ينبغي «**للمتدبّر**» أن يدرك أنّه قد صار شيئًا بعد أن لم يكن بمشيئته -جل شأنه- وهذا عالم عليه أن يصول ويجول فيه؛ لأنّه قد استخلف فيه ليعمره، ويحقق غاية الحق من الخلق فيه، ولن يتمكن من ذلك إن لم يتعلّم كثيرًا من العلوم والمعارف «**كيف بدأ الخلق ثم يعيده...** » بدءًا بخلق الإنسان وأطوار خلقه، وخلق الكون، وإيجاد الحياة، والمراحل التي تمر بها وإلى أين تتجه ومعرفة الزمان والمكان وخواص المخلوقات. و«**التدبُّر**» في كل ما ذكر الله -وهو كثير، وعلاقة كل ذلك بالسنن والقوانين الإلهيّة والقيم العليا الحاكمة: التوحيد والتزكية والعمران، وعلاقاها «**بالحق والباطل والعدل والظلم والخير والشر**». وهذا المدخل هام جدًا تتوقف على تعلُّمه وممارسته عمليَّة تكوين «**الشخصيَّة الإنسانيّة**» عقليًّا ونفسيًّا ووجدانيًّا وسبل إيجاد الإرادة والفاعليّة وتحرير الوجدان بحيث يتحدّد اتجاهه نحو الاستقامة أو الانحراف.

«**فعالم الأمر**» هُوَ عالم الغيب يعزّز به الإيمان والتوحيد. و«**عالم الإرادة**» هُوَ العالم الَّذِي يكتشف فيه الإنسان سنن الكون وقوانينه، وقواعد «**التدبير الإلهيّ**». فيه و«**عالم المشيئة**» هُوَ الَّذِي تتوقف على معرفته «**قواعد العمران ودعائمه وسبل الاستفادة بالمسخّرات**».

مدخل التدافع بين الحق والباطل:

هذا المدخل من مداخل «**التدبُّر**» يعين «**المتدبّر**» على معرفة سنن وقوانين «**التدافع**» بين «**الحق والباطل**» وبين أهل كل منهما بحيث يتكون لدى المتدبّر وعي قرآنيّ بمعرفة حقيقة كل من «**الحق والباطل**»، وخصائص كل منهما، والقواعد الحاكمة لسنّة التدافع، ومتى وكيف يكون «**الحق حقًا**»، ومتى وكيف يكون الشيء «**باطلا**»، وأوجه الإطلاق والنسبيَّة في كل منهما، وما الحدود الفاصلة بين الثابت والمتغيّر في قضايا الحق والباطل؟! وكيف يتحرك كل منهما في هذه الحياة؟!

مدخل تصنيف البشر بحسب مواقفهم من رسالات الأنبياء

وباستحضار هذا المدخل يتجاوز «**الإنسان المتدبّر**» كل التصنيفات القائمة على الأعراض الزائلة، والمواقف المتحيِّزة التي تصك الآذان صباح مساء: فهذا مثقَّف وهذا غير مثقَّف وهذا مثقَّف عصريّ، وذاك رجعيّ، وهذا تقدميّ وذاك سلفيّ، وهذا صوفيّ، وذاك متمذهب وهذا شرقيٌّ وذاك غربيٌّ... إلخ تلك القائمة الطويلة. فالقرآن قد صنّف البشر وفقًا لثوابت العلاقة بينهم وبين الله -تعالى- «**الذين أنعم عليهم من البشر بالإيمان والاستقامة**» و«**الذين غضب الله عليهم من الكافرين**» وبيَّن صفات الذين وصفوا بوصف «**الضالّين**». وهذا كما جاءت في سورة الفاتحة. وفي مقدمة سورة البقرة حيث جاءت صفات مفصّلة لكل صنف. وفي سورة فاطر نجد تصنيفًا ثلاثيًّا في داخل الصنف الَّذي أورث الكتاب؛ أي: الذين يستظلون بمظلّه الإسلام الواسعة **[ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ]** (فاطر:٣٢) وعند ممارسة «**التدبُّر**» من هذا المدخل يستحضر المتدبّر ما جاء في القرآن من صفات كل فريق من هؤلاء ومسيرته في الحياة وأفضل وأحسن طرق التعامل معه كما يستحضر مآله ومشاهد القيامة التي يرى موقف كل فريق فيها وبذلك يقوى إيمان المتدبّر، ويقوى عزمه على الانضمام إلى الفريق الفائز واتخاذ أهبته لذلك. كما يتضح بهذا المدخل أمام المتدبّر مجال فهم وتفسير كثير من ظواهر الاستقامة والانحراف في حياة الأمم والشعوب.

مدخل اللُّغة والسياق، وإدراك التناسب:

«**مدخل اللُّغة**» يقتضي من «**التالي المتدبّر**» أن يدرك الفروق بين اللُّغة العربيَّة بمستوياتها المتنوعة في الفصاحة والبلاغة وبين «**لسان القرآن**» الأعلى دائمًا في نظمه وأسلوبه وفصاحته وبلاغته بحيث تحدَّى العرب والإنس والجن ومن ورائهم أن يأتوا بسورة من مثله، فلسان القرآن مستوعب للسان العرب متجاوز له. كما أنّ «**لسان القرآن**» يختلف عن العربيَّة المعهودة. بميزة كبرى -كذلك- هيَ الاستعمال الإلهيّ له للتعبير عن وحيه وهي ميزة لا تتوافر لأيّ خطاب أو لسان آخر. وذلك يجعل عائد المعنى والمغزى أكبر بكثير منه في عائد اللُّغة العربيَّة المألوفة. ولذلك فإنّ «**المتدبّر**» في حاجة إلى التدرُّب على فهم معاني القرآن من داخله، فإذا ألف ذلك واعتاده فانّه سينمي ملكته ومهارته في فهم مفردات القرآن في سياقاتها المتنوعة، وإدراك أساليب القرآن في توظيف المفردات لأداء معان متنوعة في سياقات عديدة.

وأما «**السياق**» فهو الناظم الَّذي يعطي للمفردة معاني إضافيَّة وأحيانًا معاني جديدة في ارتباطها بما قبلها وبما بعدها، وذلك ما يطلق عليه «**المعنى السياقيّ**» للمفردة؛ وهو غير «**المعنى المعجمي**» لها. ولا شك أنّ «**التدبُّر**» في سياقات القرآن الكريم سوف يساعد «**المتدبّر**» على فهم عادات القرآن المجيد في التعبير عن مقاصده.

وأمّا الكشف عن المناسبات فهو متَّصل «**بفهم السياق**» وأعم منه حيث إنّ «**التناسب**» يدرك بإدراك الفصاحة والبلاغة -معًا- والسياق يمثّل إضافة نوعيَّة له تعزّز وسائل الكشف عن المعاني التي يحملها الخطاب، ويفتح أمام «**المتدبّر**» آفاقًا واسعة للفهم والتعقّل والتفكر.

مدخل قيام الحضارات وتراجعها

يحمل المتدبّر في ذهنه سؤالا عن الحضارات كيف تظهر، وما شروط ظهورها، وكيف تزدهر وتسود وكيف تتراجع وتذوي ثم تبيد؟! وما عوامل وقواعد وسنن قيامها؟ وما عوامل وسنن وقواعد تراجعها؟! وما سنن النهوض إذا ما كبت وتعثّرت؟ ودراسة التاريخ وآثار الأمم، وهي أمور أكثر القرآن من ذكرها والدعوة إلى النظر فيها بحثًا عن الدروس والعبر.

مدخل تنزيل القرآن على القلب:

القرآن قد نزل به الروح الأمين على قلب رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ- ولذلك نُهي -صلوات الله وسلامه عليه- أن يحرك لسانه به بادئ ذي بدء: **[لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ]** (القيامة:١٦ -١٧) وما ينزل على القلب «**... ينزل بالفهم فيعرف ما يقرأ وإن كان بغير لسانه، ويعرف معاني ما يقرأ وإن كانت تلك الألفاظ لا يعرف معانيها في غير القرآن، ويعرفها في تلاوته إذا كان ممّن ينزل القرآن على قلبه عند التلاوة وإذا كان مقام القرآن ومنزله ما ذكرنا وجد كل موجود فيه ما يريد...** ».

مدخل تثوير القرآن:

هناك ما عرف «**بتثوير القرآن**» وله سبل[1] قال ابن مسعود: «**من أراد علم الأولين والآخرين فليثوّر القرآن**»... إنَّ الَّذِي علم الكتابة بالقلم، وقراءة ما يخطّ به سوف يكون معك يعلمك ما لم تكن تعلم

[1] راجع السيوطي، الإتقان في علوم القرآن (بيروت: دار الفكر، ١٩٧٣) ١٨٥/٢.

بفضله وكرمه كما علّم المتلقي الأول -صلى الله عليه وآله وسلّم- فهو الأكرم... الَّذي لن يقتصر على تعليمك قراءة ما يوحى، بل سيعلمك الوسائل التي تقرأ بها البشريَّة هذا الوحي من إملاء وتلقين وتعليم، فإقراؤك شأن إلهيٌّ والقارئ المتدبّر بحاجة إلى استحضار ذلك.

وفي الموضع نفسه نقل الشيخ محي الدين عن الشيخ أبي مدين قوله: «**لا يكون المريد مريدًا حتى يجد في القرآن كل ما يريد...** ».

«**... القرآن مجموع الكتب، والإنسان مجموع العالم..** ».

«**... فمن وقف مع القرآن من حيث هُوَ قرآن كان ذا عين واحدة أحديَّة الجمع. ومن وقف معه من حيث ما هُوَ مجموع كان في حقه فرقانًا...** »[1].

بعد تلاوته «**حق التلاوة**» و«**ترتيله ترتيلا**» وتدبّره وتعقله وتذكُّره والتفكُّر فيه، والتطهُّر مما يحول بين القلب وبين نزوله عليه، والتعرّض لنفحات الله، والتضرّع إليه لتحقيق التطهّر، وتهيئة القلب والعقل والنفس والوجدان لمسِّ هدايته، والاستهداء بأنواره وحسن قرائته وابتعاد الإنسان عن العُجْب والغرور. وتوهم القارئ أو السامع أن ما يفعله لم يفعله غيره. سوف تتهذب قوى وعيه، وتكون لها ملكة ومران على إعطاء القراءة حقها. وعليه بعد ذلك أن يدفع سائر المشاعر السلبيَّة بالتأكيد على نفسه بأنّه منذ أن أنزل القرآن، أو بدأ تنزُّله والناس كل الناس يسعون إلى قرائته وفهمه والوصول إلى تفسيره ومعرفة مناهج أو أساليب مقاربته وتدبّره، والعروج إلى عليائه وما هُوَ إلاّ واحد من أعداد لا تحصى من الراغبين في نيل عطاء القرآن المجيد.

والقرآن -نفسه- لم يترك قارئيه سدىً، بل حدَّد لهم طرق قرائته، وكيفيَّات تلاوته، وكشف لهم عن خصائصه الفريدة وصفاته المتميِّزة، ليكونوا على بيِّنه من أمرهم في قرائته: فلا تلتبس بهم الأهواء، ولا تتجارى بهم الآراء ولا تضطرب بهم السبل.

ولكنّ القراءة -التي يمكن تسميتها «**بالقراءة الساذجة**» على المتدبّرين استبعادها هِيَ، والقراءة التي لا تشترك فيها قوى الوعي كلها. وقوى الوعي الإنسانيّ إذا طهرت، وأحسن إعدادها وقامت بتدبّره قد تمسُّ بعضه أو تصيب شيئًا من كرمه وعطائه. أمَّا إذا غفلت أو غفل بعضها أو لم تعدَّ الإعداد الكافي، ولم تطّهر

[1] راجع ابن عربي، الفتوحات المكيّة (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، د.ت.) ٣/٩٣-٤. وفي هذا إشارة منه إلى (الجمع بين القراءتين)

كما ينبغي لها أن تتطهّر فإنّ القرآن الكريم يغلق مكنونه دون القلوب الساهية، ويحتجب عنها فلا تعرج إلى عليائه، ولا ترقى إلى سمائه.

لأن الكتاب الكريم قد وصفه بعض قارئيه بصفات كثيرة: فهو المخرج من الفتن، والمنقذ من الضلال، والهادي في الظلمات، والمتجاوز للأزمات، وعلاج المشكلات. فيه نبأ من قبلنا بكل دروسه وعبره، وخبر من بعدنا نستشرف به المستقبل وندرك به الحاضر، ونخرج بالاحتكام إليه من الاختلاف، وهو الفصل ليس بالهزل. من تركه فهو جبَّار عنيد، ومن ابتغى الهدى في غيره فهو في الضلال البعيد، ومن هجره فهو غير رشيد. ومن استكبر عن قبول شريعته، أو تجاوز منهجه فهو من حطب جهنم، إن عاش عاش معيشة ضنكًا وإن مات فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا.

وهو كنز مكنون مفتاحه «**التدبُّر**» وبابه النظر والتفكّر ومدخله التذكّر والتعقّل، وغراسه العلم، وشجره المعرفة. و«**التدبُّر**» جهد بشريٌّ وتوفيق إلهيٌّ يبدأ قبل التلاوة حين نبدأ بالعمل على استيفاء شروطه، وشحذ الهمّة لممارسته، وتهيئة العقل والقلب والوجدان لبلوغ غايته، وإعداد قوى الوعي للسياحة في آياته. وحين نتدبّر آيات «**سورة المزمّل**» ندرك المدى وعمق الشروط التي وفّرها الله لرسوله -صلى الله عليه وآله وسلّم- ليتلقى «**القول الثقيل**» القرآن مجرّد تلقٍ حيث أمر وهو في حالة التلقي أن لا يحرّك به لسانه، وأن لا يتعجل انتهاءه **[لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ]** (القيامة:١٦-١٩). فإذا كان الحال مع رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلّم- هكذا، فكيف بالنسبّة لغيره ممن لم يصنعه الله -تعالى- على عينه؟! إنّه في حاجة إلى إعداد مضاعف، وتهيئة أكبر لقوى وعيه، وتطهّرًا وتطهيرًا لقوى الاستقبال لديه. وإذا كانت المرآة إذا تكدر وجهها وتراكم التراب عليه تضعف قدرتها على عكس ما يقابلها وتنقص بقدر ما عليها من كدر فانّ ذنوب الإنسان تكدِّر صفاء قوى وعيه، وتقلّل من قدرتها على التقاط معاني القرآن ومعايشة آياته كل بحسبه، ولذلك قال جل شأنه: **[وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ]** (الأعراف:١٧٩) وقال جل شأنه: **[وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (٢١) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ (٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ**

لَتوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ] (الأنفال: ٢١-٢٣) ويقول جل شأنه: **[كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ]** (المطففين: ١٤) فالرين يغشى القلوب فلا تعود قادرة على إدراك وفقه ما تقرأ أو تسمع، والسمع والبصر إذا غشيتها الذنوب تغيَّرت وظائفها. وإذا كانت الأمراض العضويَّة في المشاهد تغيّر من درجة الإبصار وتشوِّشه فانَّ الحجب المعنويَّة الناجمة عن الذنوب تعكس آثارًا سلبيَّة على فقه الإنسان وفهمه فلا بد من تنقيتها وجلائها بالتوبة والاستغفار، وتنقيتها بالإخلاص والإقبال على الله -تعالى- لفهم كلامه وحسن الأخذ عنه جل شأنه. ونستطيع أن نعتبر ذلك التطهير والإعداد لقوى الوعي مع التطهّر المعنويّ بالتوبة والإخلاص بمثابة الشروط التي تسبق الصلاة من اغتسال أو وضوء أو تيمّم وتطهير ثوب ومكان واستقبال للقبلة وما إليها. وإذا كانت الصلاة لا تصح بدون شروطها فانَّ «**التدبُّر**» لا يقوم ولا يتحقق بدون تلك الشروط وإلاّ فإنّ تجليّات القرآن وأنواره تحتجب فلا تظهر في ذلك الوسط الغائم المحاط بالضباب: ضباب الذنوب المانع من سلامة القلوب، بل قد تؤدي تلك الرؤية الضبابيَّة إلى التقاط إشارات مشوشة أثناء القراءة التي لا تتمتع بالنقاء المطلوب. ولذلك قال جل شأنه: **[وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلا خَسَارًا]** (الإسراء: ٨٢) فالروح الفاعلة في هذا الوحي إن لم تصادف قلوبًا وأفئدة منيبة إلى الله -تعالى- مصغية اليه وأسماعًا قد أصاخت السمع اليه، وأبصارًا قد تركزت عليه، وبصائر قد تفتحت به وعليه: فإنّه قد لا يزيد أصحاب تلك القلوب والأسماع والأبصار إلا خسارًا.

فهذه الشروط التي ذكرنا هِيَ شروط التدبُّر ومقدّماته التي لا يكون «**التدبُّر**» ولا يتحقق بدون استيفائها كلّها.

فإذا تم ذلك ووجد مريد التلاوة أنّه قد صار أهلا لبدء التلاوة، أو الشروع في الاستماع فعليه أن يستحضر من جديد عظمة هذا الكتاب الَّذِي هُوَ مقبل على قرائته ويستحضر اسماءه وصفاته ويحدِّد مقصده من القراءة وهدفه منها، وتلك هِيَ «**النيَّة**» التي لا يستقيم عمل ولا يتحقق إذا لم يقترن بها «**إنّما الأعمال بالنيَّات...** »[1] والنيَّة هنا بالنسبة للقارئ وللمستمع دليل على صدق العزيمة وإخلاص النيّة في التلاوة والجد في الطلب والعزم على التدبُّر.

---

[1] حديث متفق عليه من رواية عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- رواه الُبخاري فِي سبعة مواضع من" كتابه : فِي أَوله وفِي آخرِ الأَيمَان وفِي أَول الْعتق وفِي أولِ الْهجرةِ وفِي أَوَّل النِّكاح وَفِي أَوَّلِ الْحِيَلِ " ، وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ فِي " الْجِهَادِ " ، وَأَبُو دَاوُد فِي " الطَّلَاقِ "راجع نصب الراية في تخريج أحاديث الهداية، الحديث الخامس.

ثم يقوم القارئ أو السامع بإخطار قوى وعيه بأنّه مقبل على هذا الأمر العظيم، فعليها أن تتهيّأ لذلك، وتستعد له بكل ما لديها من طاقة.

ويحذرها من الغفلة، أو ضعف الانتباه، أو الانشغال بأيّ شيء غيره. ويقوم في الوقت نفسه بإشعار القرآن المجيد الكريم بنيّته وعزمه وكأنّه يقول له: أيّها القرآن الكريم إنّني قادم إليك بكل قواي التمس عطاءك وأطلب كرمك، وأرجو نوالك ومسَّ آياتك لقلبي ولجوارحي، متضرّع إلى منزِّلك المتكلم بك -جل جلاله- أن يجعل من تلاوتي لك أو استماعي لآياتك نورًا لبصري وبصيرتي، وشفاءً لما في صدري وهدى ورحمة فأرجو أن تقبل عليّ ولا تخيِّب رجائي.

ثم يتوجّه إلى رب العالمين، منزّل القرآن المجيد، الَّذي فصّله على علمه، وأنزله على قلب نبيّه ليقول له: **«اللّهم إنّ الكتاب كتابك والكلم كلمك، والوحي وحيك، ومعانيه كنزك، اللّهم يا منزّل الكتاب على قلب نبيِّك، وجاعل القرآن خلقه وسلوكه، والفرقان شيمه ومنهجه، والنور والهدى دعوته أسألك أن تصلي وتسلّم عليه بعدد سور القرآن وآياته، وتصلي وتسلّم عليه بعدد حروفه وكلماته وتصلي وتسلم عليه بعدد ما على الحرف من حركات وسكنات وبعدد القارئين والقارئات من يوم بدء نزوله إلى يوم الدين»**.

فعلى يديه تعلمنا الكتاب والحكمة، وبه هدايتنا إلى «**التزكية والعلم**» وهو من بيَّن لنا ما في الكتاب من أمرك ونهيك، وبه اتضحت العقيدة، وظهرت الشريعة، فأدّى الأمانة، وبلّغ الرسالة ونصح الأمَّة وجاهد فيك حتى أتاه اليقين. حمّل الخلق أمانة القرآن، وتركهم على محجَّته البيضاء، واستشهدهم وهو على عرفاتك على ذلك فشهدوا أنّه قد بلّغ رسالتك إليهم، وأودع كتابك فيهم، وتركه من بعده شاهدًا عليهم، ونبيًّا مقيمًا فيهم. إنّي مقبل على تلاوة كتابك ذي السبع المثاني، وطالب الهداية بالقرآن العظيم فاجعله لي شفاءً ورحمة، وهدى ونورًا وافتح قلبي على مكنونه، واشرح صدري به واحشرني تحت لوائه وارزقني ما جعلته بين يديه من نور، وما خلفه من رحمة، وانزله على قلبي. إنّك سميع الدعاء.

ثم يستعيذ ويسمّي ويشرع بالتلاوة بتؤدة وتأنٍ فلا يسرع ولا يتعجل، ولا يجهر ولا يخافت، بل يبتغي بين ذلك سبيلا ثم يحاول -مستعينًا بالله فهم ما يقرأ، وإدراك ما يتلو. باسم الله ومع الله سبحانه وتعالى. وإذا

.

لم يفهم آية فلا تثريب عليه أن يعيد قرائتها، ويتدبّر معاني مفرداتها، ويتأمّل في علاقات كلمات الآية ببعضها، وما قبل الآية وما بعدها، والسياق الَّذي جاءت فيه، ويفكر في عمود السورة وأساسها ومحاورها، وموقع تلك الآية منها. ويكون إلى جانبه ما يكتب به ليدوّن فهمه بعد كل قراءة وإعادة فسوف يجد أن فهمه يزداد عمقًا كلّما كرّر تلاوة الآية والتدبُّر فيها. ولا ينبغي أن يكون همّه منصرفًا إلى زيادة القراءة، بل إلى «**التدبُّر والفهم**» حتى لو أنفق ساعات في تدبّر آية واحدة فليس ذلك بكثير أبدًا، بل ذلك هُوَ المبتغى.

فإذا بلغ غاية الجهد ونهاية الوسع، وشعر بأنّ قوى وعيه قد تفتحت على معاني الآية، وأدركت المراد منها فليحمد الله ويشكره. ويؤكد لنفسه على أن ما بلغه لم يصله بقدراته الذاتيَّة؛ بل بتوفيق الله -سبحانه وتعالى- له، ولطفه به، وتفضله عليه. وإياي وإياه أن تسوّل له نفسه القول: «**إنّما أوتيته على علم عندي**»، بل هُوَ لطف الله وفضله وتوفيقه وكرم كتابه الكريم.

مدخل الأزمة

لقد عرف سلفنا الصالح «**مدخل الأزمة**»، والقرآن المجيد يتنزل لمعالجة أزمات البيئة ومشكلاتها، مثل واقعة الإفك والتبنّي، ومشكلات اليتامى، والجهاد والربا وسوف نعرض قبل نهاية البحث مزيدًا من هذه المداخل.

ذلك أنّ القرآن المجيد كتاب كونّي ونبيٌّ مقيم، وكل ما يوجّه إليه الآخرون أو يقدمونه من حلول فإنّه أقوم، وأهدى سبيلا، وأحسن تفسيرًا. وليس هناك على وجه الأرض اليوم كتاب كونّي[1] غيره، ومشكلات العالم اليوم، لا الأمَّة الإسلاميّة -وحدها- بل العالم كلّه، صارت مشكلات «**كونيّة**» وأزمات عالميّة، والمشكلات الكونيّة والأزمات العالميّة تحتاج إلى مصدر «**كونيّ**»، قادر على معالجة هذه الأزمات بأبعادها الكونيَّة، والتصدي لها ومساعدة إنسان اليوم على تجاوزها والهيمنة على آثارها.

(١) - لبيان المراد بـــ «الكونّي» نقول: نعنى بالكتاب الكونّي أنّه كتاب معادل موضوعيٌّ للكون وحركته، ومستوعب لهما بكليْاته ومكنونه الذي يتكشف عبر الزمان. فما من جانب أو جزء أو موضوع من موضوعات الكون لا يستوعبه القرآن المجيد بنوع من أنواع الاستيعاب في كليَّاته، أو مقاصده أو غائيته أو =تقييمه، أو تفسيره أو الكشف عن علاقاته ووظائفه، وبعد أن يستوعبه القرآن الكريم، يبين سبيل الهدى فيه بحيث يقوم بعمليات وضعه في سياقه ليجعل منه ميدانًا من ميادين النظر والدرس والتأمل والاعتبار أو دليلاً من أدلة الإبداع والخلق والرعاية والتسخير والتشيؤ، مع توجيه نحو التفكيك له حتى يبلغ مستوى «مثقال ذرة» والتركيب حتى يبلغ مستوى «الوحدة الكونية» وتراصها في بنائها الواحد في «عالم الخلق» الزوجي. وهذا ما تعجز عنه فلسفات العالم مجتمعه قديمها وحديثها.

من هنا تكتسب قضيَّة بناء «**منهجيَّة تدبّر القرآن المجيد**» أهميَّتها البالغة في أيامنا هذه، فنحن المسلمين نعاني من أزمات عديدة، بعضها انعكس علينا من أزمات عالَمِيَّة، وبعضها وُلد ونشأ في بيئاتنا، فنحن نعيش أزمات خاصّة بنا، بوصفنا مسلمين، وبوصفنا عربًا أو شرق أوسطيّين أو بأيّ وصف آخر يمكن أن نوصف به. كما أنَّنا نعيش في عالم تجتاحه أزمات عالَمِيَّة أخرى كثيرة تنعكس علينا، وتؤثّر فينا. وإن كان البعض يتوهم أنَّها «**حوالينا لا علينا**».

* * *

ومن «**مدخل الأزمة**» أي: مقاربة القرآن المجيد من هذا المدخل (الذي نعني به تدبّر القرآن بحثًا عن هدايته إلى حل لمعالجتها) سنستعرض بعض الأزمات العالميَّة والإقليميَّة المعاصرة لنرَ كيف يمكن أن يقودنا «**تدبّر القرآن**» إلى الوصول إلى معالم في تأسيس معالجات ناجعة لها، ويضعنا على سبيل الحل.

نماذج من الأزمات العالَمِيَّة:

حينما يحاول المفكرون المعنيُّون بالشأن العالَمي، بصفة خاصة، أن يرصدوا أهم مشكلات عالم اليوم من وجهة نظرهم، أو مشكلات أمريكا والغرب بصفة خاصّة، يذكرون أوّل ما يذكرون مجموعة محدودة من المشكلات، لكنّها خطيرة: ومن هذه المشكلات (تفكّك الأسرة وانهدام العائلة). ولم يعد هذا التفكّك أزمة من أزمات المجتمعات الغربيَّة –وحدها- بل انتقلت هذه الأزمة إلى سائر إنحاء العالم، ومنها الأقطار والأقاليم الإسلاميَّة. فكيف نقرأ القرآن متدبّرين لمعالجة هذه الأزمة في بلداننا وفي العالم كلّه؟!

الأزمة الأولى: تفكك الأسرة

تفكُّك الأسرة، وانهيارها، وسقوط قيمها، وعجز الأديان المعتنقة في تلك البلاد عن إعادة بناء ما تفكك وانتقال عدوى «**تفكك الأسرة إلى العالم كلّه**»، ومنه العالم الإسلاميّ.

فـــ «**الأسرة**» في الغرب تفككت أو كادت لكي تصبح ستة أنواع، وتحول «**مفهوم الأسرة**»، من المفهوم النفسيّ الزوجيّ الَّذِي جاءت به الأديان - كلّها -، إلى مفهوم عجيب وإلى زوجيَّة من الناحية العدديَّة؛ فهناك زوج وهناك فرد، وكل اثنين يجتمعان فهما زوجان، وبالتالي إذا اجتمع شاذان وقرّرا العيش المشترك فقد اعترفت به - كما نعلم - بعض البلدان، ومنها ولايتان أمريكيتان حتى الآن والبقيَّة تأتي من

الولايات المتحدة أو من غيرها، لأنَّهم اعتبروا أنّ هذا يمكن أن يُعدّ زواجًا مقبولا، وتوحّد الضريبة على الاثنين، ويُعامل الاثنان أمام القانون كما يعامل الزوجان فيما صاروا يسمونه اليوم بـــ «**الأسرة التقليديَّة**» المؤلّفة من زوج وزوجة أي: ذكر وأنثى، وكذلك بالنسبة لسحاقيَّتين أو شاذَّتين أو زانية تتبنَّى لقيطًا أو زانيًا أو لوطيًّا يتبنَّى لقيطًا أو غير ذلك.

وكلّ هذا يسمونه «**أسرة**»؟ لأنَّهم قد حطّموا «**مفهوم الأسرة**» وصارت الأسرة عندهم زوجًا رقميًّا حسابيًّا لا زوجيَّة إنسانيّة، «**زوجيّة أنفس**» تخضع لنظام الزوجيَّة الكونّيّ الَّذِي هُوَ جزء من سنن الكون، ولذلك نادي رئيس الولايات المتحدة - المنصرف بوش الابن بأنّه سوف يعيد بناء «**مفهوم الأسرة التقليديَّة**» - وربما كان هذا النداء منه من أهم أسباب انتصاره في معركة الرئاسة الثانية، أملا منهم في أنّ إعادة تعريف «**مفهوم الأسرة**»، لينحصر بما يسمّونه بمفهوم «**الأسرة التقليديَّة**» أمرٌ سهل المنال يمكن أن يُعاد بناؤه ببرنامج سياسيّ، بعد كل ذلك التفكّك والتشويه الَّذِي أصابه**!!** ولذلك فإنّه لم يحقّق شيئًا يذكر في هذا المجال وما هُوَ بقادر على ذلك رغم قضائه ثمانية أعوام في البيت الأبيض**!!**.

وطبعًا حين يتكلم المفكر الأمريكي[1] اليوم عن الدين، فإنَّما يعني الدين المسيحيّ، أو اللّاهوت المسيحيّ بشقيه البروتستانتيّ والكاثوليكيّ، وأيّ كنيسة أخرى تنتمي إلى ذلك الدين، ثم اليهوديَّة بالنسبة للمسيحييَّن اليهود، أو من يسمّون أنفسهم «**باجود وكريستيان**».

وبطبيعة الحال حين يتكلم عن «**عجز الدين**» عن إعادة تركيب «**الأسرة**» فكلمة «**الدين**» هنا عامَّة شاملة تنعكس عنده على الإسلام وعلى اليهوديَّة من باب أولى بعد أن انعكست على النصرانيَّة بكل كنائسها، والأديان الوضعيَّة، إضافة إلى ما شاع أو تعارف الناس على تسميته في تلك البيئات بالأديان

---

[1] - وفي حين نخص المفكرين الأمريكان بالذكر في هذا المجال - فذلك لأنّ مراكز البحوث والدراسات الأمريكيّة في مستوياتها المختلفة لم تعد اهتماماتها تنحصر في «خصوصيّات أمريكيّة» لا تتجاوزها، بل تنطلق من مركزيّة أمريكيّة ذاتيّة باتجاه العالم - كلّه - لاعتبارات عديدة، لعل من أهمّها أنّها ترى أنَّ مشكلات =«المركز العالمي» وأزماته لابد أن تنعكس بشكل أو بآخر على بقيّة أنحاء العالم؛ كما إنّ العديد من مراكز البحوث «Think Tank» بدأت تعمل على نشر وتعميم قيم المركز ومناهجه، وأساليب حياته على العالم كلّه؛ فذلك يعد من المعالجات المطلوبة لمشكلات المركز. ولن يصعب على هذه المراكز - بعد ذلك - رصد الفروق والخصوصيّات بين المركز العالمي - أمريكا - والأطراف. وحين يتحدث المفكر الأمريكيّ عن «الدين» مثلاً فهو وإن بدا في ظاهره - أنّه يتناول «الدين» بالمفهوم الخاصّ به، لكنّه في الحقيقة - يعمّم -، وإذا خصّ فإنَّما يكون تخصيصه ليدفع الآخرين إلى تبنّي وجهة نظره وموقفه في التعامل مع الدين عامّة.

الإنسانيّة[١]. وبالتالي فإنَّه يرى بأنّ موقفه من الدين ينبغي أن يكون موقفًا عالميًّا على العالم - كله - أن يتابعه فيه، لأنَّه لا يفرق في رؤيته الكليَّة بين كتاب وآخر، بل إنَّه كثيرًا ما ينظر إلى القرآن خاصَّةً نظرة دونيّة ضالّة.

وأمريكا تحاول الآن معالجة هذه الأزمة - بحسب متابعتي لبعض الجهود التي تقوم بها بعض العناصر الأكاديميَّة التي تعمل للوصول إلى حلول للمشكلات والأزمات - وذلك بالعمل على إنماء الجانب الروحي فتحوّل ذلك إلى نوع من التعصّب الدينيّ، يهدّد وحدة أمريكا، لا أقول تعصبّ من يسمَّون بـــ «**المحافظين الجدد**» وحدهم، ولكن هناك تعصّب الكاثوليك، الأرثوذكس، من اليهود، والنصارى وأصحاب الأديان الوضعيَّة، وقد يشاركهم بعض المسلمين، كذلك حيث يشترك هؤلاء كلّهم في هذا التوجّه المقيت الَّذي يحمل سائر بذور الصراع، لأنَّه ظاهرة عامَّة كثيرًا ما تعرض «**لفقه التديّن**» لدى الإنسان[٢] وقد أعيد تدريس «**الوصايا العشر**»[٣] في المدارس الثانويَّة لبعض الولايات بحثًا عن علاج دينيّ لمشكلات العصر.

ومع أنَّ الدواعي في البداية كانت سليمة، والنوايا كانت طيِّبة سليمة كذلك فلم تكن تعدو القيام بمحاولة تذكير البشر بالجانب النفسيّ والجانب الروحيّ في الأديان. ومحاولة القيام بعمليّة إنماء الطاقة والحياة النفسيّة أو الروحيَّة من أجل مقاومة تلك النزعات المدمّرة أو التقليل من أضرارها، ولكن ليس كل اقتراح أو مشروع إصلاحيّ يمكن أن يؤتي ثماره المطلوبة منه دون أعراض جانبيَّة، ولذلك جاء هذا الاتجاه بتعصّب أيديولوجيّ، وتعصّب دينيّ أو طائفيّ يهدّد الآن - كما أشرت - وحدة كثير من تلك الأقطار، وأمنها

---

[١] - ويعنون بها تلك الممارسات الروحية مثل بعض الديانات الهنديّة والصينيّة واليابانيّة التي يظن معتنقوها أنّها ترقى بنفوسهم، وتعطيهم بعض مشاعر الرضا والاستعلاء.

[٢] - ظاهرة التعصب عندما تبرز فإنَّها لا تبرز من الدين ذاته، ولكنّها تحدث عندما تحدث اتجاهات الإنحراف «بفقه التديُّن» فيسقط البعض قدسيَّة الدين ومصادره الإلهيّة على أفهامهم للدين وهي أفهام نسبيّة قاصرة. فيبدأ المتديّن بفقه تديُّن منحرف يؤمن بأنّ فهمه ذاك يعني أنَّه قد امتلك الحقيقة الدينيّة، وأحاط بها بحيث لا يرى في شيء من فقه سواه نصيبًا من الحقيقة يستحق الاحترام أو الاعتراف. ولذلك يخطئ من يظن أو يتوهم بأنّ علاج التعصب إنّما يكون بالبعد عن الدين ذاته، بل العلاج يكمن في مراجعة فقه التديُّن وإعادة بنائه بشكل سليم يجرده من صفة القداسة التي يحملها الدين نفسه. ويضعه في نصابه باعتباره فهمًا بشريًّا للدين، لا يمثل الفهم النهائي أو الوحيد للدين. وأنَّه ما دام فهمًا بشريًّا فإنَّه يحتمل الخطأ والصواب، ويمكن أن يكون الصواب في هذا الفهم أو غيره. وامتلاك الحقيقة الكاملة، أو الإحاطة التامة بها شأن إلهيٌّ، لا يستطيع البشر بنسبيَّتهم إدعاء الإحاطة بها. ولا بد من إنماء نظر المتديّنين إلى المشتركات بينهم وبين غيرهم، والتذكير المستمر بها، ولذلك جاءت الآيات الكريمة في القرآن المجيد تنبه إلى المشتركات مرات عديدة، فإذا ذكرت الاختلافات حصرتها وحددتها ودعت إلى الحوار حولها لإنماء مساحة المشتركات بالدعوة إلى الكلمة السواء.

[٣] الوصايا العشر جاءت في الأديان الثلاثة: فقد جاءت في التوراه وأكد عليها الإنجيل، وهي في القرآن الكريم في الآيتين (١٥١و ١٥٢) من سورة الأنعام.

واستقرارها. وربما أحدث ذلك التوجه الَّذي كان في بدايته إيجابيًّا توتُّرًا داخليًا ومخاوف خارجيَّة؛ ومع ذلك فإنّ بعض المفكرين الغربيّين صار يسوّغه؛ بل يراه بعض الناس ضروريًّا لإعادة بناء الأسرة وتعزيز اللّحمة بين عناصر الأمَّة الأمريكيَّة، التي تعتبر الأمة الوحيدة التي فيها نماذج من العالم - كله - أديانه وقوميَّاته ومذاهبه وطوائفه وألوانه وأعراقه... إلى غير ذلك، وأنّ هذا التوتر قد يكون في صالحه لإعادة بناء وحدته ولحمته، وبعضهم يرى فيه خطرًا داهمًا يمكن أن يهدّد كل شيء، خاصة وأمريكا الآن تمثّل قطبًا منفردًا في مقدّرات العالم. والأمر قريب من هذا بالنسبة للمجموعة الأوربيّة، والتهديد غير قاصر على بلدان وقوى «**العالم الأول**» وحده، بل هُوَ شامل لسائر الأجزاء الأخرى من المعمورة. وهذه المشكلة لا يمكن لغير «**القرآن المكنون المجيد**» في الوقت الحاضر أن يقول فيها القول السديد الَّذي يمكن أن يستوعبها ويتجاوزها بعد المعالجة. و«**تدبّر القرآن**» يقدّم للبشريّة حلا ميسَّرًا مقدورًا عليه إن شاء الله يقوم على ما يلي:

١ -توظيف التطلُّعات الإنسانيَّة التي أثارتها الحضارة المعاصرة لإعادة بناء «**قيمة الإنسان الحقيقيَّة**» القائمة على تكريمه، والاعتراف بمركزيَّته في الكون من هذا الجانب: **[وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلا]** (الإسراء: ٧٠) ومن مقتضيات التكريم الإلهيّ الترفُّع عن الحيوانيَّة والبهميَّة، وإعادة تنظيم العلاقات الجنسيَّة بين الذكر والأنثى وربطها بالغائيَّة التي نبَّه القرآن عليها[١]، لا بالعدميَّة الغرائزيّة الشهوانيّة.

٢ -إعادة بناء منظومة ومفاهيم «**المسئوليَّة الأخلاقيَّة**» ومقاومة الأفكار التي تعتبر الانحرافات الأخلاقيَّة أمورًا تعود إلى فكرة «**الجبريَّة الجينيَّة**»[٢]. والقرآن المجيد قادر على ذلك وقد كانت الشعوب

---

[١] - المتمثلة بأهداف النكاح الثلاثة: «تحقيق السكن والمودة والرحمة بين الزوجين. وبناء شبكة النسب والصهر، واستمرار بقاء النوع الإنسانيّ لإعمار الكون وتحقيق الاستخلاف». وبذلك تكون مؤسسة الأسرة ضروريّة للاجتماع الانساني، والرغبة الجنسيَّة إنّما هي دافع لتشكيل الأسرة، وليست الهدف من تشكيلها.

[٢] - لقد أشاع بعض حملة «العلم الشيطانيّ» بأنّ الشذوذ الجنسيّ والانحرافات الأخلاقية تقع ممن تقع منهم بتأثير «الوراثة والجينات الموروثة» فكأنّ الشاذ مجبر على ممارسة شذوذ فرض عليه باعتباره موروثاً جينيّاً لا يملك له دفعاً. وبالتالي فينبغي أن لا يخضع «الشواذ والمنحرفون أخلاقيّاً» إلى أيّة مساءلة دينيَّة أخلاقيّة أو قانونيَّة أو اجتماعيّة؛ لأنّهم يمارسون ما يعتبره الآخرون انحرافات وجرائم أخلاقيَّة مكرهين. ومن هنا تصبح «الديمقراطية بمفهومها الغربيّ المطروح درع حماية، ومحافظة على كل تلك الانحرافات؛ لأنّ الإنسان» يترجم في ظل ذلك إلى صوت انتخابيّ بقطع المنظر عن ممارساته وسلوكه. والمواطن: يعرّف بأنّه «دافع ضرائب، مطيع للقانون». [وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ] (الأنعام: ١١٢) .

الأمّيّة أشد انحرافًا من المعاصرين في هذه المجالات فقوّم القرآن بتأويل وتفعيل وتطبيق رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلّم - انحرافاتهم، وأعادهم إلى جادة الصواب، وجعل منهم خير أمّة أخرجت للناس.

٣ -إعادة بناء «**مفهوم الأسرة بناءً قرآنيًّا**» واعتبارها «**الوحدة الصغرى**» التي يقوم عليها بناء المجتمع والمحضن لسائر الأهداف الإنسانيّة النبيلة التي وضعها القرآن المجيد أهدافًا للنكاح وتكوين الأسرة.

٤ -إعادة بناء مفهوم «**الحريَّة**» بحيث يتّسع المفهوم لاستيعاب الضوابط الأخلاقيّة وإحاطة «**كيان الأسرة**» بالضمانات اللاّزمة دون إحساس بـــ «**تصادم مع الحرية**» وبناء مفهوم «**ثقافة السفينة**». الّذي ضربه رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلّم - مثلا للجميع[1].

---

[1] - نعني بثقافة السفينة ما جاء في قوله - صلى الله عليه وآله وسلم - في الحديث الذي رواه البخاريُّ والترمذيُّ وأحمدُ وغيرهم عن النعمان بن بشير - رضي الله عنهما - عن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أنّه قال: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فكان بعضُهم أعلاها، وبعضهم أسفلها؛ فكان الذين في أسفلها إذا استقَوا من الماء مرُّوا على من فوقهم، فقالوا: لو أنّا خرقنا في نصيبنا خرقاً و لم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً». وهذا اللّفظ هو ما أخرجه البخاريّ في «كتاب الشّركَة» «باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيها» وأخرج البخاري من طريق آخر عن النعمان بن بشير - أيضا - في «كتاب الشهادات» «باب القرعة في المشكلات» واللفظ الذي عرضناه من «كتاب الشّرِكَة» صوبّه الشعْبيُّ واختاره ورجّحه الحافظ ابن حجر، قال: لأنه يشمل الفرق الثلاث، وهي: الناهي عن المعصية، والواقع فيها والمرائي بذلك، أو «المداهن» كما في اللفظ الآخر؛ فالذين أرادوا خرق السفينة بمنزلة الواقع في حدود الله، ثم من عداهم إمَّا منكر، وهو القائم على حدود الله، وإما ساكت وهو المدهن. وقوله: «استهموا على سفينة» - أي: اقترعوها، فأخذ كل منهم سهمًا - أي: موقعًا منها إجارة أوملكًا. قال الحافظ ابن حجر «وهكذا إقامة الحدود تحصل بها النجاة لمن أقامها، ولمن أقيمت عليه، وإلاّ هلك العاصي بالمعصية والساكت بالرضا بها». إنّ هذا الحديث قد ضربه رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلّم - مثلاً ومن شأن الأمثال أن تنفتح على معان كثيرة، ويمكن أن تضرب لصور عديدة مما تحتمله ألفاظها وسياقاتها على «أن لا تغيَّر في حال مضربها عن حال موردها». وقد استنبط الفقهاء من هذا الحديث فوائد جمَّة، ومعاني وفيرة، ومع ذلك فهذا الحديث المثلُ ما يزال قادراً على مدِّنا بالمزيد. فيمكن أن تضربَه مثلاً للأرض ووحدتها، ولسكانها من البشر ووحدة مصيرهم: فالأرضُ مثلُ السفينة، والأسرةُ البشريَّة الممتدَّة مثل ركاب تلك السفينة.

=وهذه الأسهم من الأرض التي نطلق عليها أوطاناً ودياراً هي أسهم المجموعات البشريّة التي جُعلَت شعوبا وقبائل لتتعارف، وتتآلف وتتعاون على تحقيق العمران في الأرض الذي يعدُّ جوهر مهمَّة الاستخلاف فيها. وهذا لا يعطي الحق لأيّة مجموعة بشريّة أن تتعسَّف في استعمال حقها في الانتفاع فتفسدَ في نصيبها من الأرض بحجَّة كونه نصيبها أو وطنّها؛ فكونه دارها أو نصيبها لا يعطيها الحق في الإفساد، وتدمير البيئة أو تلويثها، أو تعريضها للخطر؛ لأنّ الضرر لن يكون قاصراً على ذلك الجزء، بل سيكون شاملاً في بعض الأحيان للبيت الإنسانيّ الكبير ألا وهو المعمورة كلّها. وسيكون ضاراً بالأسرة البشريّة بمجموعها. فيجب على الأسرة البشريّة الممتدّة أن تتظافر وتتكاتف لحماية سفينة الأرض ومن عليها وما عليها من أية أعمال قد تؤدي إلى الإفساد في الأرض أو العيث فيها فساداً [وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ] (الأعراف:٧٤) [وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا] (الأعراف:٨٥) . وهذا الواجب يتناول المجموعات الإنسانيّة الصغرى في القرى والمدن والأقاليم، ويتناول كذلك الأسرة باعتبارها الوحدة الصغرى في المجتمع، فالكل شركاء في المسئولية عن حماية السفينة - كلها - وركابها أجمعين. ولا يغني عنهم أو يرفع المسئولية عن كواهلهم أمام الله - تعالى - : أنّهم لم يشاركوا بإحداث التخريب؛ لأنّ الهلاك سيعم الجميع. فلو أنَّ البشر أدركوا مسئوليّاتهم نحو سفينتهم - الأرض والأسرة البشريَّة الممتدة التي تسكن عليها، وتضامنوا للقيام بواجب منع الإفساد في الأرض،

٥ -إيقاف وسائل وأدوات المد الإباحيّ المنفلت مثل أفلام الجنس، وشواطئ العرى، وتجريم صناعتها والترويج لها، شأنها شأن الانفلات والإباحيَّة البهيميَّة متداخلة متكاملة فلا بد من اقتلاعها كلّها.

والقرآن المجيد بكونيّته ومنهجيَّته المعرفيّة قادر على تقديم الحلول والتدابير الكفيلة بإخراج الإنسانيَّة من هذه الأزمة المدّمرة. وإعادة بناء التصور السليم للأسرة باعتبارها نواة المجتمع تتوقف على سلامة بنائها سلامة بناء المجتمع فبناء الأسرة على أقوى الدعائم مسئوليّة أخلاقيَّة ورسالة اجتماعيَّة يقوم الزوجان بها لصالحهما أولا ثم لصالح مجتمعهما والإنسانية كلّها.

وما من قضية اجتماعية عنى بها القرآن المجيد ببنائها لبنة لبنة مثل (الأسرة) التي بناها على أقوى الدعائم بدءً من الخطبة حتى الوفاة وتنفيذ الوصايا وتوزيع المواريث.

الأزمة الثانية: تلّوث البيئة:

والمشكلة الثانية التي يتعرضون لها بحثًا عن حلول. هِيَ مشكلة « **تلّوث البيئة** »، وتحولها لا إلى محضن للإنسان ومنزل له، يحتمي به ويعمره، ويمارس حياته السليمة فيه، بل أصبحت تهديدًا له في صحته، وتهديدًا له في حياته - بما حدث لها من عمليّات التلُّوث في الجو والبر والبحر - والتهديد بالمجاعة بعد إهلاك الحرث والنسل، والنقص في المياه الصالحة للشرب، وزيادة حرارة الأرض، وثقب الأوزون والتصحُّر والجفاف، وسواها من مشكلات . وأزمة البيئة قد بلغت مستوى الاستفحال، فهي توشك أن تتجاوز سائر قدرات البشر على حماية الأرض من تلوث واحتباس حراريّ وتغيرّات لم يعد العلم - بكل طاقاته - قادرًا على الهيمنة عليها.

وقد عُقد المؤتمر الشهير، أو ما عرف بقمة الأرض في البرازيل منذ سنوات، وشارك فيه «**ستون ومائة**» من ملوك ورؤساء العالم، وقد تعلقت أنظار العالم بتلك القمة أملا في أنَّها سوف تخلص البشريّة من

والأخذ على أيدي المفسدين - لما كانت أسلحة الدمار الشامل ستظهر أو تنتشر بهذا الشكل المريع الذي جعل مخزونها كافيًا لتدمير الأرض وما عليها ومن عليها لعدة مرات، وإنهاء الحياة عليها تماماً!!

وَلَمَا ظهر الفساد والتلوُّث في البر والبحر والجو بهذا الشكل الخطير. وَلَمَا كان ثلث البشريَّة يعيشون اليوم تحت خط الفقر تفتك بهم الأمراض المختلفة والجهل والأميَّة والتسلُّط والحروب. والحديث يقدم بذلك أساساً متيناً للتضامن البشريّ والتكامل لمواجهة الأخطار المشتركة صفاً واحداً، وإرساء دعائم ما نسميه «بالمجتمع المدنيّ العالميّ» وتقوية ما هو متوافر من مؤسَّساته، وإيجاد ما ليس بموجود منها لتحمل كل مجموعة بشرية مسئوليتها، وفي تقوية وحماية الثغرة التي تقوم عليها، وحماية السفينة. وتلك هي الثقافة التي تحتاج إلى بناء وتأصيل ونشر بين الناس وتعميم.

أزمات ومشكلات البيئة واتخذوا مقررات، وأصدروا توصيات[١]، ولكن ما الَّذي حدث؟ لم يحدث شيء؛ في ما يتعلق بأسلحة الدمار الشامل والنفايات النوويّة والكيماويّة والجرثوميَّة والحروب، ولا في ما يتعلق بالصراعات، ولا في ما يتعلق بمقاومة الفقر، والجهل، والمرض. الأمم المتحدة ومؤسَّساتها المختلفة، تعمل ليل نهار على معالجة شيء من ذلك دون كبير جدوى.

ومع قيام حركات «**الخضر**» (The Greens) وكثير من المنظَّمات والتيّارات التي بدأت تصدر النداء تلو الآخر محذّرة من الأخطار التي تهدّد البيئة وسلامتها، فإنّه لم تتوقف دول العالم الأول والثاني عن إنتاج الصناعات المدمّرة وعمليّات تلويث الماء واليابسة والجو بالنُفايات وبقايا الصناعات المدمّرة للحياة حتى أدّى ذلك إلى بروز ظاهرة الاحتباس الحراريّ (Global Warming) الَّذي دفع الأمم المتحدة للاستمرار في مناداة الحكومات والشعوب لعمل شيء للمحافظة على الكوكب الأرضيّ والحياة فيه. ولكن لا حياة لمن تنادي. فكل تلك المؤتمرات والنذر لم تستطع تحقيق الكثير من الإجراءات والوسائل التي يمكن أن تساعد على حماية البيئة. فالقناعات التي أوجدتها نظريّات التنميّة المتنوعة جعلت ميدان التنافس واسعًا جدًّا بحيث علا صوت المنافسة في الصناعات المختلفة بل صار يعلو على أيّ صوت آخر. ومن هنا فقد صار من الضروريّ أن يقوم القرآن الكريم بدوره وتبرز آياته المحكمة التي اشتملت على رؤية كليّة للكون بكل ما فيه ومن فيه ليشعر الإنسان أنّه إنّما يخرّب بيته وميدان استخلافه، ويهدّد حياته إذا ظلَّ يتجاهل ما يحدث للبيئة، ويصر مستكبرًا عن سماع صوت البيئة والطبيعة وهي تستصرخ بولدها الإنسان طالبة النجدة[٢].

وحينما نرصد حجم المأساة وكميَّة الأزمات وكيفيَّة إدارتها، ثم الوسائل التي يحاولون بها معالجة تلك الأزمات فإنَّنا لا نجد أنّهم قد فعلوا إلا القليل القليل، لماذا؟ الجواب مرة أخرى: إنَّ إصلاح هذه الأحوال، ومعالجة هذه الأزمات، يحتاج إلى كتاب كونّي قادر على إعادة تركيب ما تفَكَّك، وبناء ما تهدَّم، وهذه المشكلة على تشعُّبها وتفاقمها، واتّساع نطاقها في مقدور القرآن إخراج البشريّة من ظلماتها إذا لجأت إليه.

وذلك بما يلي:

---

(١) - وكان الرئيس الوحيد الذي استشهد بنصوص دينيّة حول ضرورة المحافظة على البيئة واحترامها وعدم إحداث أي تخريب فيها هو الرئيس الإسرائيلي؟ مع قلّة ما لديهم في هذا المجال!!

(٢) - راجع ما نشر في مختلف الوسائل الإعلاميَّة والتعليمية عن مؤتمر البيئة: قمة الأرض والسلسلة الطويلة لمؤتمرات الأمم المتحدة. ونحوها.

١ -إعادة بناء مفهوم «**العمران**» في العقل البشريّ عامَّة.

٢ -تجاوز جميع الأفكار المنحرفة التي جعلت العلاقة بين الإنسان والطبيعة أو الكون المسخّر علاقة صراع وتحدّ ومغالبة فأوقعت بين الأم «**الطبيعة**» وابنها المفضَّل «**الإنسان**» ولذلك فلا بد من إعادة بناء علاقة الأمومة والبنوّة بينهما[١]، وتحويل العلاقة من علاقة صراع كما حدّدها الحضارة المعاصرة إلى علاقة تفاعل وتكامل كما بيّنها القرآن.

٣ -إيقاف الجشع الرأسماليّ ونزعات الأثرة والاستئثار، والنظر إلى الأرض على أنّها للبشريّة - كلّها - بكل أجيالها، لا لجيل واحد.. فلكل جيل ما يحتاجه فعلا وليس من حقه أن يبدّد نصيب الأجيال الأخرى.

٤ -ترميم وإعادة بناء القيم الأخلاقيَّة المتعلقة بعلاقة المال والطبيعة والإنسان.

٥ -إدخال تعديلات على مفاهيم الوطن والدولة والحدود البريَّة والمياه الإقليميَّة والأجواء الإقليميَّة، والنظر إليها على أنّها تقسيمات وهميَّة. وأنَّ الأرض - كلّها - سفينة ركابها البشر - كلهم -وهم مسئولون — جميعًا - مسئوليَّة تضامنيَّة عن إعمارها ومحاسبون عن كل ما يؤدي إلى تدميرها. والقرآن المجيد بكونيّته يستطيع أن يقدم للبشريّة منظومة كاملة تخرجهم من هذه الفوضى التي تهدّد البشرّ والحياة على الأرض كلّها.

* * *

الأزمة الثالثة: الحروب والصراعات:

فإذا جاؤوا إلى محاولة تحديد المشكلة الثالثة أو الأزمة الثالثة، فكثيرًا ما يذكرون الحروب، والصراعات، وعجز البشريّة عن احتواء هذه الصراعات بأنواعها، وإيقاف هذه الحروب الإقليميّة والنزاعات، حتى إنَّ الجامعات الأمريكيَّة مؤخرًا بدأت تعتني بتأسيس أقسام علميّة تختص بدراسة تقديم ما يمكن من اقتراحات لحلول المنازعات أو ما يعرف بـــ «Conflict Resolutions»، لإحساسهم بضغط هذه المشكلة لا على مستوى الدول والحكومات وحدها، بل على مستوى الشعوب والأديان ومستوى الأسرة والجيران وسائر المستويات الأخرى، فالتوتُّر والتحفُّز للنزاع بسبب أو بغيره صار سمة لازمة لهذا العصر، وخاصَّية للحياة

[١] - وهناك تحليل وتفعيل طريف ودقيق للعلاقة بين الانسان والطبيعة كتبناه في حلقة تالية من حلقات هذه السلسلة خاصّة في المنهج القرآنيّ. قيد النشر والطبع.

المعاصرة بعد العلوّ الغربيّ بكل ما يحمل من بذور «**ثقافة الصراع**» في اللاّهوت والفلسفة والتاريخ الغربيّ ومقوّمات حضارته الاصطراعيَّة.

ولن تجدي كل المحاولات القائمة شيئًا في إيقاف الحروب والمنازعات الدوليَّة والإقليميَّة؛ لأنَّها تفتقر إلى الأسّس السليمة التي أرسى القرآن المجيد دعائمها. ومنها: «**وحدة البشريّة**» والنظر إليها على أنّها «**أسرة واحدة ممتدّة**». وأنَّ الأرض - كلها - بيت لهذه الأسرة الممتدة تشترك فيه وفي خيراته. والأرض وخيراتها - كلّها - مخلوقة بقدر، وحساب، **[وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ]** (فصلت: ١٠) **[وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ]** (يس: ٣٨) إنّه لا بد من تحليل مختلف القضايا التي يراد عرضها على القرآن المجيد تحليلا يؤدي إلى فهم الأزمة، والدقّة في صياغتها سؤالا.

إذن: فعمليّة «**التدبُّر**» هِيَ عمليّة ليست بسيطة بحيث يكفي لبلوغها بعض التأمّلات؛ بل هِيَ في غاية التشعُّب والامتداد، وتحتاج إلى قدرات وإمكانات ومراكز بحوث ودراسات ينهض بها أذكى الأذكياء من أبناء الأمَّة؛ لكي يصلوا إلى صياغة الإشكاليّات الكبرى ويقاربوا القرآن بحسبها، ويتدبّروا آياته، ليكتشفوا حلوله ومعالجاته وسننه وقوانينه وهدايته، ومناهج وكيفيات تفعيليها في الواقع. والتّدبُّر بشروطه الدقيقة قادر عند تبنيه وممارسته على مد البشريَّة برؤية وحلول لهذه الأزمة وأسبابها ومنابعها.

وبذلك يمكن أن يقدّموا للبشريّة شيئًا من «**المحدّدات المنهجيّة**» والمؤشّرات التي تعينهم على التخلّص من عوامل الصراع وتخفيض مصادره، أو لنقل تخفيف مصادر النزاع والصراع بينهم تمهيدًا لمناداهم جميعًا بـــ **[يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ]** (البقرة: ٢٠٨).

كيف ذلك؟ القرآن الكريم يؤكد للبشر - وهنا تبرز أهمّية صفة «**الكونيّة**» في القرآن الكريم - أنّهم أسرة واحدة ممتدة، **[يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا]** (النساء: ١).

إذن: فالأصل نفس واحدة. والأصل الثاني أسرة واحدة ممتدة، وعلى هذا فالبشر - كلُّهم - ينتمون إلى أسرة واحدة ممتدة، كلكم لآدم وآدم من تراب، تُرى لو ساد هذا الشعور أو الوعى لدى البشريّة ووعت

به وتحول إلى جزء من ثقافات الشعوب وأديانها، ومسلّمات حضاراتها، وأدركت أنَّ اختلاف ألسنتها وألوانها، وأديانها ومذاهبها، وعروقها ومصالحها، والمواقع الجغرافيَّة التي تعيش فيها، إنَّما هِيَ اختلافات عرضيَّة طفيفة تحدث في الأسرة الواحدة لا تجعل منهم أممًا مختلفة؛ لأنَّها ما وجدت إلا لإعانتهم على التعارف، والتعارف يستدعي التآلف، والتآلف يستدعي -بعد ذلك- التعاون، لو حدث هذا الوعي في البشريّة لما وجد أيُّ أحد عذرًا أو مسوّغًا لكي يقاتل أخاه، أو يشتبك مع أسرته، أو يحّول أبناء أسرته الواحدة الممتدَّة إلى أعداء يفتك بعضهم ببعض، ولكن تناقض المصالح، وفقدان آليَّات احتواء الصراعات التي أرشد القرآن الكريم إلى الكثير منها. وغياب هذه النظرة الإنسانيَّة المتوازنة التي أرسى القرآن المجيد دعائمها، ونشاط شياطين الإنس والجن؛ هذه الأمور كلُّها لم تسمح للبشر أن يروا فيما بينهم إلا عوامل الاختلاف والتنافر لا عوامل الائتلاف والتآخي، كما أنّ إعلائهم شأن الصفات العرضيَّة غير الثابتة على صفتهم الأساسيَّة المشتركة الإنسانيّة هيّأهم للسقوط في اختلافات كثيرة ثم التنازع حولها.

والبشريّة اليوم تحاول جاهدة أن تجد أيّ مصدر «**كونّي**» يمكن أن يعينها على رأب الصدع، وقد ابتكرت الجامعات الأمريكية والغربيَّة -كما ذكرنا آنفًا- ما أطلقوا عليها «**علم حل المنازعات**» أو Conflict Resolution فلم يستطيعوا إلى الآن بالرغم من الآليّات الكثيرة المقترحة أن يقدموا لنا ما قدمه القرآن الكريم في مؤشرّات محدودة مشوّقة جدًا، ومؤثِّرة جدًا، وقادرة على تهيئة النفس البشريّة لاستقبال فكرة الانتماء إلى الأب الواحد والأسرة الممتدة الواحدة، وهذا الاعتقاد حين يتحول إلى سلوك وثقافة يكون خطوة معجزة في تهيئة البشريّة لتحويل التعدُّد والتنوّع إلى عوامل إيجابيَّة في معالجة أسباب الصراعات والمنازعات والحروب إضافة إلى الإيمان بوحدة الأرض.

وفي القرآن المكنون أمور أخرى لا بد من استجلائها، ومنها كونيّته وقدرته البالغة على معالجة الأزمات العالميّة الكبرى، وإعادة تركيب ما فكّكه الإنسان بجهله، أو بُعده عن مصادر هدايته، أو بعلمه المنقوص **[يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ]** (الرُّوم:٧). والقرآن الكريم حينما نؤكد قدرته على هذا التأليف والتركيب، لا يمكن أن نتبيَّن هذه القدرة بدون أن نتبيّن «**حقيقة القرآن بتدبّره**» والمناهج التي لا بد لنا من استعمالها وتوظيفها لاستجلاء معانيه بأفضل الأشكال وأحسنها، فالقرآن المجيد، كما يخبرنا رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلّم- فيما أخرجه الترمذي، ورواه الإمام أَبُو

طالب في أماليه، وابن الأثير في جامع الأصول، وغيرهم من أصحاب الحديث يخبرنا أنّ الفتن ستظهر وستقوم، و«**الفتنة تقابل الأزمة**» وقد تزيد عليها، وإنَّ من بين هذه الفتن، فتن انشغال الناس بالأحاديث عن القرآن؛ والأحاديث سواء أكانت بمفهومها الاصطلاحيّ أو بالمفهوم الآخر ما نسميه اليوم بالآراء أو التعليقات أو التعقيبات أو التحليلات أو سواها، مما يفتتن به الناس من أمور أخرى وينشغلون بها عن القرآن الكريم تعد من «**الفتنة عنه**»، حتى جاء الحارث بن عبد الله الهمداني صاحب الإمام علي — رضي الله عنه - ليخبره بما سقط الناس فيه من هجر القرآن يقول الحارث صاحب علي: (مررت بالمسجد - أي: مسجد الكوفة - وقد رأيت الناس يخوضون بالأحاديث (أي: بدل مدارسة القرآن) فدخلت على عليّ - رضي الله عنه - وأخبرته، فقال: أَوَ قد فعلوها؟ قلت: نعم، قال: أما إني قد سمعت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلّم - يقول: «**ألا إنّه ستكون فتن!! قلت: فما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: كتاب الله؛ فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هُوَ الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الَّذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هُوَ الَّذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: [قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا] (الجن: ١ -٢)، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعى إليه هدى إلى صراط مستقيم**»)[١] انتهى. هذا الخبر الجليل، الَّذي جاء من طرق عديدة، منها هذا الطريق وطريق آخر من حديث معاذ عن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلّم - وجاء من طريق ثالثة من حديث عمر بن الخطاب، وتداوله العلماء حتى أخذ موضع الاشتهار، و لم يختلف أحد على دقة وصحة معانيه، فتلقَّوها بالقبول، وذلك بعض ما يمكن أن يوصف به كتاب الله تبارك وتعالى؛ بل هُوَ غيض من فيض أوصافه.

---

[١] - والحديث رواه الترمذي باب ما جاء في فضل القرآن برقم (٢٨٣١ / ١٠ / ١٤٧) قَالَ عنه أَبو عيسي: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ لا نَعْرِفُهُ إلا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ وَإِسْنَادُهُ مَجْهُولٌ وَفِيهِ الْحَارِثِ وفيه مَقَالٌ، كما رواه البيهقي في شعب الإيمان باب إنها ستكون فتنة برقم (٤/١٨٨٣ /٤٥٠).

قلت: وإذا لم يصح مرفوعًا فهو من آثار الإمام عليّ - رضي الله عنه - ومعانيه صحيحه تنطبق على القرآن المجيد - كما ذكرنا في المتن - والله أعلم. وقد ألف الناس أن يمارسوا عمليّات الترغيب والترهيب بنسبة مقولات حكميَّة صادقة، أو آثار يعززها الواقع أو العلم أو الرأى الرشيد إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلّم - وذلك لإعطائها الحجيَّة، ولو ذكروها - كما هي - باعتبارها حكماً أو آثاراً أو مقولات صحيحه لكان ذلك أجدى وأنفع، و لم يحرموا الناس من الاستفادة بها في غمرة الجدل الذي يثار في قضايا التوثيق والتضعيف. والله أعلم. ولعل من ذلك هذا النموذج الذي معنا.

وقد أكّد القرآن المجيد أنَّ الأرض - كلّها - بيت للإنسان؛ الإنسان بمفهومه الشامل، يعني هذه الأسرة الممتدة **[هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ]** (البقرة:٢٩)، **[وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ]** (إبراهيم:٣٣ - ٣٤)، استخلفكم في الأرض جميعًا بوصفكم نوعًا لا بوصفكم قبيلة أو شعبًا أو أمَّة مختارة. وكون الأرض بيتًا للإنسان، وموضع عبادة وطهور، وأنّ موارد الأرض خلقت بمقادير ونظم دقيقة لتكون كافية للأسرة البشريّة الممتدة إذا سادت البشريّة القيم القرآنيّة من أمانة وعدالة ومساواة.

وأفكار الاصطفاء التي طرحت في ما مرّ من الزمن، واصطفى الله - تبارك وتعالى - بعض النبيّين، واصطفى لهم أقوامهم. وعمليّات الاصطفاء هذه ليست مما يمكن أن يؤثّر على هذه الوحدة؛ ذلك لأنَّ الاصطفاء - أيضًا - قد تمّ في إطار عمليّة التنوع وعمليّة تقديم القدوة والأسوة على مستوى البشر، كل في زمانه، وما كان للأمم التي اعتنقت أديانًا سماويَّة كبني إسرائيل الذين فضّلوا على العالمين في وقتهم أن يتعالوا على البشريّة بهذا الَّذي مَنَّ الله - تعالى - عليهم به؛ بل ليشكروا الله - تبارك وتعالى - أن فضَّلهم على عالمي أهل زمانهم، وأن لا يجعلوا من هذا التفضيل وسيلة استعلاء على عباد الله، من بقية الأمم يمكن أن تثير صراعًا، بل هيَ وسيلة لتقديم القدوة والأسوة. فما كان لهم أن يبلغ استكبارهم حد القول: **[لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ]** (آل عمران:٧٥).

فحين نؤمن أنّ البشريّة أسرة ممتدة، وأنَّ الأرض كلّها بيت لهذا الإنسان لا ينبغي أن يلوثه أو يفسد فيه، أو يعيث فيه فسادًا، ولا ينبغي أن يسيء إليه، بل ينبغي له أن يحبُّه، ويستثمره، ويحرص عليه، ولا ينبغي أن يتوهم أنّه امتلكه باصطفائه امتلاك استبداد، بل امتلاك منفعة فحسب؛ لأنَّه مستخلَف فيه، فسوف نجد أنَّ هذا الإنسان إذا آمن أنَّ الأرض - كلّها - مترل له لا يمكن أن يجعل بعضها مدفنًا للنفايات المدمّرة، لأنَّه إفساد لها وفيها، ولا يتركها مواتًا ونهبًا للتصحُّر، ولعمليّات التلوث المختلفة، لأنّها وديعة لديه - كلّها - لا إقليمه وحده، ويدرك ويوقن أنّ الأرض كلها أرضه، وأرض أسرته الممتدة، ولذلك أعاد رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - هذا المفهوم بشكل قويّ، بناءً على ما ورد في القرآن المجيد، وأكد على ما ورد في آيات الكتاب وبيّن السنن الإلهيَّة والقوانين الكونيَّة لتداول الأرض ووراثتها قومًا بعد قوم وقرنًا بعد قرن

[هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا] (هود:٦١)، **[وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ]** (الأنبياء:١٠٥)، **[قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ]** (الأعراف:١٢٨). ورسول الله -صلى الله عليه وآله وسلّم- يقول: «**جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا**»[(١)] ونصّ على أنّ الأرض كلها مسجد؛ له حرمة المسجد، وتقدير المسجد وطهارته، ومحبّته، واحترامه، وينبغي أن يحاط بهذا النوع من الشعور. والدعوات التي تنهض اليوم حول حماية البيئة وحماية الخضرة وغيرها، ما هِيَ إلاّ دعوات تالية تعد ضعيفة جدًا بالنسبة لما كان رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلّم- يسعى لإرساء دعائمه في هذا الجانب في قلوب البشر وعقولهم.

وبهذا يتّضح أنَّ القرآن حينما نأتي إليه متدبّرين يستجيب لنا - ونحن نحمل هذا النوع من الأزمات في قلوب البشر وعقولهم. أزمة البيئة؛ وأزمة الصراع، وغيرهما من الأزمات الطاحنة. إنّ القرآن المجيد يقدم لنا «**عند حسن التدبُّر**» من المؤشّرات ما يجعلنا قادرين على الوصول إلى الحل الأمثل. بإذن منزّل القرآن جل وعز.

فإذا علَّمنا أنفسنا ودرَّبنا أجيالنا على كيفيَّة استعمال مداخل «**القراءة المتدبّرة**» بعد الانفعال القلبيّ واستعداد قوى الوعى كلّها، لنعرف كيف يمكن أن يشتبك القرآن المجيد مع الواقع الَّذي نحياه حتى يقوم القرآن بتغييره؛ آنذاك سوف نجد أنفسنا في حاجة إلى أن نجلس بين يدي القرآن، ضارعين خاشعين متعلّمين، فالقرآن الكريم بالنسبة لنا «**نبيٌّ ورسول مقيم**»، و«**نبيٌّ ورسول دائم**»، تركه الله بين أيدينا، بعد أن رفع من أنزله عليه -صلى الله عليه وآله وسلّم -إلى الرفيق الأعلى، ليكون الكتاب الهادي هُوَ النبيّ المقيم والرسول الدائم، فعلينا أن نتهيأ نفسيًّا وعقليًّا وقلبيًّا حينما نأتي إلى عالمه الرحب الواسع، لأنَّه للذين آمنوا هدى وشفاء، وهو على غيرهم عمى، فليست كل قراءة قراءة ولا كل تلاوة تلاوة، وإنما تتحقق التلاوة المطلوبة المتدبّرة عندما نقارب القرآن من مداخله الأساسيّة، وهي تلك القراءة التي يمكن أن توصف بأنَّها

---

(١) - رواه البخاري، بَاب قَوْلِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله وسلّم جُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، برقم (٤١٩)، من حديث جابر بن عبد الله، (٢/ ٢١٧)، ورواه الترمذي، بَاب مَا جَاءَ أَنَّ الأَرْضُ كُلَّهَا مَسْجِدٌ إلا المَقْبَرَةَ والْحَمَّامَ، (٢/ ٣٢)، من حديث أبي سعيد الخدري، ورواه النسائي باب الرخصة في ذلك الرخصة في ذلك، برقم (٧٢٨)، (٣/ ١٧٤)، ورواه ابن ماجه باب ما جاء في التيمم، برقم (٥٦٠)، (٢/ ١٩٩).

تلاوة للقرآن حق التلاوة، **[الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ]** (البقرة: ١٢١).

فكيف نتلوه من المداخل المناسبة لمعالجة تحديات حياتنا التي لا تتوقف؟

الأزمة الرابعة: الصراع العربيّ الاسرائيلي:

إضافة إلى ما تقدم من أزمات لنأخذ على سبيل المثال، تحدّى وأزمة «**الصراع العربيّ الصهيونيّ**» – الآن - ونحاول مقاربتها بتدبّرنا لآيات الكتاب الحكيم. خطوتنا الأولى في المقاربة أن نحاول معرفة «**المحدّدات المنهجيَّة**» التي نستطيع أن نستنبطها من القرآن الكريم ونحن نتعامل مع «**الظاهرة الإسرائيليّة والصهيونيّة**» لنقرّر ما الَّذي نفعله؟ لا شك أنَّها أزمة مستفحلة، مرّت عقود ونحن نعانيها، ونكابد منها وفيها، وقد تستمر لعقود أخرى وتطرح علينا مختلف الاقتراحات، وتصدر مئآت القرارات منّا ومنهم، ومن مختلف المنظمات الدوليّة دون أن تزيد الأزمة إلا استفحالا وتعقيدًا، فهل نستطيع أن نأتي بهذه الأزمة، ونصوغها سؤالا نطرحه على القرآن المجيد؟! متدبّرين طالبين الجواب القرآنّي السديد؟! الجواب الوجيز: نعم؛ ولكن كيف؟

بعد خطواتنا الأولى لمعرفة «**المحدّدات المنهجيّة**» خاصة ما يتعلق بهذه الأزمة، لا بد لنا من استقراء السنن والقوانين الإلهيّة الواردة في القرآن المجيد، ومعرفة تلك السنن والقوانين التي تخضع هذه الظاهرة لها كليًّا أو جزئيًّا. ثم استقراء وتتبّع «**أبعاد الأزمة**» في كليَّتها دون مغادرة أي جانب تفصيليّ؛ ما علاقتها بالأرض؟ ما علاقتها بالإنسان المسلم عامّة والعربيّ والفلسطينيّ خاصَّة، ما علاقتها بالتاريخ وبالدين، بالثقافة، بالتقاليد، وبالموارد، وبالاقتصاد، وبالسياسة، ما صلتها بالماضي كلّه، وبالحاضر كله، وبالمستقبل كلّه؟ ما علاقتها بالدين وبالحضارة ومستقبل البشريّة؟ كيف برزت الأزمة وكيف تطورت وكيف تنعكس على بيئة الأزمة المباشرة؟ وكيف تنعكس على البيئة الدوليّة؟ ثم نحاول أن نعطي لكل بُعد نصيبه في الأزمة.

فكل هذه المتغيّرات والمعطيات لا بد أن توضع تفصيلا، «**بالنسبة للأمّتين**» المسلمة واليهوديَّة اللتين تشكلان طرفي الصراع على طاولة البحث، لكي تصاغ «**الأزمة**» باعتبارها سؤالا، نتوجه به إلى القرآن الكريم.

ونقدمه له ونضعه بين يديه. وهذا أمر لم يكن قائمًا في «**جيل التلقي**».

ففي «**جيل التلقي**» كانت الأزمات تحدث وبعد أن تبرز الأزمة في واقع عصر التلقي وتستفحل يترل القرآن الكريم بالحل، وبالجواب الشافي لها، أمَّا بعد ذلك الجيل فإنّ القرآن قد تم واكتمل و لم يعد نجومًا يمكن تتريلها على أسئلة البيئة، ولا يستطيع أحد أن يعيد تفريقه وتوزيعه نجومًا ليعيد تتريله كما توهم البعض فإن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلّم - وجبريل قد أمرا بأن يعيدا ترتيب القرآن نجومًا بعيدًا عن أسباب التزول ومناسباته التي كان يمكن ملاحظتها خلال (اثنين وعشرين عامًا وخمسة أشهر واثنين وعشرين يومًا). هِيَ فترة نزول القرآن الكريم.

كما لم يعد من الممكن تقسيم القرآن إلى مكيّ ومدنيّ وقراءته بهذه الطريقة، فهذا الأمر ينبغي أن نستبعده، فالقرآن بين أيدينا كامل بفضل الله -تعالى-. كما تلاه جبريل ورسول الله -صلى الله عليه وآله وسلّم- قبل وفاته فيما عرف «**بالعرضتين الأخيرتين**» وهو كامل، ولا يمكن إعادة تفريقه بعد أن جمعه الله —تعالى- **[إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ]** (القيامة:١٧)، وقد قام تبارك وتعالى بجمعه وقراءته، فلا مفرّق له بعد ذلك، لذلك لا بد لنا أن نصوغ إشكاليّاتنا وأزماتنا وأسئلتنا ثم نطرحها على القرآن الكريم في «**كليّته**» وفي «**وحدته البنائيَّة**». ونطَّرح بين يديه ضارعين، مخبتين نُنزِّل آياته وسوره بكلّيّتها على قلوبنا وعقولنا، من أجل أن نحصل على جواب، وقد لا نحصل على هذا الجواب بقراءته مرة أو اثنتين أو عشرة، فلا ينبغي أن نعجل فقد نحتاج إلى قراءته متدبّرين أضعافًا مضاعفة حتى يرتبط القلب به، ويبدأ التفاعل معه، وإدراك معانيه، وتفتح قوى وعينا على مكنونه. وتتريل الأزمة عليه، والحصول على معالجته وجوابه عن تلك الأزمة المستفحلة، التي لم تعد أزمة خاصَّة بطرفي الصراع، ولكنّها تحولت إلى أزمة عالميَّة، تهدّد العالم بأسره، حيث تهدّد أمنه، واستقراره، وتهدِّد كل شيء فيه. تلك هِيَ «**قضيَّة الصراع العربيّ الصهيونيّ**».

فحينما نصوغ السؤال، بعد استعراض ما ذكرنا أهم عناوينه فيما يتعلق بالأمَّتين كليهما، ونضع ذلك كله بين يدي القرآن، ونصوغ الإشكاليّة بعد تدبّره ونعطي لكل متغيّر وكل معطى من المعطيات حقه وموقعه من هذه الأزمة، فسيختلف - آنذاك - الوضع ومنهج البحث والتناول، وسوف نجد أنَّ هناك أمورًا كثيرة لا بد من استيفائها واستكمالها لكي نصل إلى التصور المطلوب، والمنهج المناسب لمعالجة هذه الأزمة.

سوف نكتشف أنَّ المناهج التي يجري استعمالها حتى الآن في معالجة هذه القضيّة وتناولها ليست هيَ المناهج الملائمة لقد احتزل «**المنهج**»، وحاول الناس اليوم أن يختزلوا القضية - كلّها -؛ فمرة يختزلونها إلى أنَّها قضيَّة أرض، ومرة يظهرونها قضيَّة مرتبطة بمقرَّرات أمميّة، ومرة يقال: إنَّها ترجع إلى حق عودة أو حقوق لاجئين أو وعد إلهيّ، أو ما أشبه ذلك مما نسمعه صباح مساء، دون جدوى، فكيف نستخرج «**بالتدبُّر**» معالم الحل القرآني لهذه الأزمة؟ إنَّ القرآن يملك أن يعطينا حلا - لا شك - لو أحسنَّا تدبّره ومقاربته، وعرفنا كيفيَّة الولوج إلى رحابه لنستنطقه الحل في معالجة هذه الأزمة، مستخدمين كل المعطيات التي أشرنا إليها باستقراء تام غير ناقص، فالقرآن قد استقرأ تاريخ الشعب الإسرائيليّ من بدايته حتى نهايته، وتتّبع سيرته، وتصرفاته وعقليّته ونفسيّته وسائر مركبات شخصيَّته، ومواقفه من كل شيء، وبيّن أفضل السبل لفهم تلك الشخصيَّة ومركباتها ومفاتيح دراستها. والقرآن يبيّن للباحث كيف استقرت المعطيات التي تتعلق بهم والتي تتعلّق بنا وبتاريخنا وبالدين وبمصادر الدين وبالمصالح وبالعلاقات بالمستقبل وبالتاريخ والجغرافيا. وينبغي فعل الشيء نفسه مع أمَّتنا مبيّنا أهم خصائصها، وكيف استحقت أن تكون أمّة بديلة، وقواعد «**المداولة**» بين الأمَّتين، وقوانينها الحاكمة، ومآل العلاقات والتحذير من الوقوع فيما وقع فيه اليهود إلى غير ذلك مما يجعل الباحثين المحلّلين قادرين على الخروج بتصوُّرات كاملة بسيرورة التاريخ بالأمتّين والخضوع لسنَّة «**الاستبدال**»، ليأتي المسلمون أمّة بديلة عن أمَّة يهود في تبوُّء موقع الاصطفاء الإلّهيّ من قوله تعالى: **[يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ]** (البقرة:٤٧) **[يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ]** (البقرة:١٢٢) وقوله تعالى: **[ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ]** (فاطر:٣٢).

فإذا تّم تدبّر ذلك فإنَّ القرآن يقدّم لنا مؤشرّات في غاية الأهميّة حيث يستعرض لنا في سورة البقرة من (الآية ٣٩ إلى الآية ١٤١) سيرة فيها كثير من التفاصيل عن بني إسرائيل، ويأتي في سور أخرى من القرآن الكريم في مقدمتها «**سورة المائدة وسورة القصص وسورة الشعراء وسورة الإسراء وسورة الحشر**» وبعض السور الأخرى ليستكمل صورة هذه الأمَّة، طبيعتها، نفسيّتها، طرائقها في التفكير، طرائقها في التعامل مع الأنبياء، طرائقها في التعامل مع المرسلين، وطريقتها في التعامل مع حكامها بكل أنواعهم

وسلوكها في التعامل مع الأمم الأخرى، ماذا تفعل عندما تنتصر؟ ماذا تفعل عندما تنهزم؟ ماذا تفعل عندما تفتقر؟ ماذا تفعل عندما تستغني؟ كيف تتصرف عندما تجتمع، وكيف تتصرف في الشتات في القرآن، كل ذلك تجده مفصَّلا في غاية الدقة. لكنَّنا - كما قلت - نحتاج به ومعه إلى توفير أمرين؛ الأمر الأول: استقراء جميع المعطيات المتعلقة في الأمة المسلمة والشعب العربيّ بمثابة القلب منها، وفي بني إسرائيل أنفسهم وموقع «**الحركة الصهيونيّة**» منهم، ثم بعد ذلك نستقرئ ما جاء في القرآن المجيد عن الأمَّتين، وطرائق تعاملهما وتاريخهما وغاياتهما، وأهدافهما، والواقع الحالي لكل منهما إلى غير ذلك، من أجل أن نصل إلى تصور ما يمكن أن يوصلنا القرآن المجيد إليه من معالجات لهذه الأزمة ونحن نتعامل مع هذه الظاهرة، وليبيِّن لنا المقدمات والشروط والإجراءات والغايات ومن أين تبدأ، وإلى ماذا سوف تنتهي وما سوى ذلك، ونتبين - آنذاك - أنّ أيّ إخلال في أمر من هذه الأمور سوف يؤدي إلى مزيد من التعقيد للمشكلة على سائر المستويات.

الأزمة الخامسة: الانحراف في تسخير العلم والمعرفة:

هناك - أيضًا - مشكلة الانحراف في تسخير «**العلم والمعرفة**» فبدلا من تسخير «**العلم والمعرفة**» لإسعاد الإنسان ومعالجة مشكلاته صار «**العلم والمعرفة**» يسخّران لتصنيع وسائل الدمار الشامل وغيرها ممّا يهلك الحرث والنسل. وهكذا يبدو العالم اليوم عالمًا يعاني تهديدًا في غاية الخطورة حيث إنَّ نفايات مصانع الدمار الشامل من الأسلحة النوويَّة وغيرها، لم يعد لها في الأرض مكان يمكن أن تدفن فيه، لا في البر ولا في البحر. وأصبحت الدول الصناعيّة الكبرى، كثيرًا ما تحاول التسلّل كما يتسلّل اللّصوص إلى بعض الصحاري أو بعض البلدان التي يُرى أنَّ فيها مساحات يمكن أن تدفن فيها هذه النفايات أو في مياه المحيطات والبحار القريبة منها، فيفعلون ذلك فيقع الضرر على الأبرياء وفي أراضيهم أو مياههم؛ وقد ينجو منه صُنَّاع الدمار ولو إلى حين. والنماذج على ذلك كثيرة، فهناك مصانع لهذا النوع من أسلحة الدمار أغلقت، ولكن لا يعرف من أسّسوها، سواء في أمريكا أو في أوربا، لا يعرفون كيف يتخلّصون منها أو من آثار وجودها على سائر الموجودات من الحياة والأحياء؛ لأنَّ التخلّص منها يعني تدمير البيئة أكثر مما هيَ مدمّرة، ولأنَّ ذلك يعني تعميم التلُّوث، وربما إنهاء الحياة في أقطار كثيرة أو أماكن كثيرة في العالم، ولذلك فهناك مصانع للكيماويّات وغيرها، أغلقت لعدم صلاحيّتها ولكن لا تعرف أمريكا ولا روسيا ولا المجموعة الأوربيّة كيف

يتخلّصون منها ومن مخلّفاتها، فتوضع عليها الحراسات المشدّدة، وتنفق عليها الملايين من أجل إبقائها مغلقة هكذا، فذلك أهون الأضرار - في نظرهم -، ولكنّها في كل الأحوال سيف مسلط على الإنسان يمكن أن يقتله ويقتل الحياة في أيَّة لحظة. والقرآن المجيد المكنون بكونيّته هُوَ القادر على تقديم الحلول لهذه المشكلات، التي أوقع الإنسان غروره وتمرّده على ربه، بل وعلى نفسه في حبائلها، ووضع عنقه تحت مقصلتها؛ لأنَّه لم يضبط «**العلم بالقيم**»، ولم يدرك حقيقة موقعه، ولا جوهر مهمَّته في هذا الكون. ولأنَّ تجاهله الغبيّ لعالم الغيب ووحدانيّة الخالق العظيم، وأنّه هُوَ المالك الحقيقيّ له وللعالم الَّذي استخلفه فيه قد دفعه إلى هذه المهالك التي لم يعد يعرف كيف ينقذ نفسه منها!! إنَّ أمريكا أقامت الدنيا ولم تقعدها على بلدان اتُّهمت بأنَّها ملكت ما قد يمكّنها من صنع أسلحة دمار شامل، وأمريكا وسائر تلك الدول الدائرة في فلكها وإسرائيل تملك من هذه الأسلحة والمواد المهلكة ما يكفي لتدمير الأرض ومن عليها عدة مرات. وقد يزعم هؤلاء أنَّهم راشدون عقلاء فلا خطر على البشريّة من امتلاكهم لهذه الأسلحة المدمّرة بكل أنواعها، أمَّا الآخرون - وخاصَّة إذا ما كانوا مسلمين - فإنَّ امتلاكهم لهذه الأسلحة أو لنواحي العلم والتقنية يعد -في نظر الغرب وإسرائيل - تهديدًا وخطرًا يجب أن يقابل بشن الحروب الاستباقيَّة المدمرة لتلك البلدان، حتى ولو كانت في مستوى الأمنية لدى قادة تلك البلدان، ولا وجود لها في الواقع، كما كان الحال بالنسبة للعراق في ظل نظام «**البعثيّين**».

وهذا - كلّه - يتنافى والغايات التي حدّدها الله - سبحانه - للعلم والمعرفة؛ فالعلم والمعرفة ينبغي أن يكونا مصدر سعادة وعمران، لا تدمير وشقاء ولذلك فإنَّ القرآن يربط بين «**العلم والمعرفة والتقوى والتزكية**» بأوثق رباط. ويحذّر من خطورة العلم والمعرفة حين ينفصلان عن قيم «**التوحيد والتزكية والعمران ومهام الاستخلاف، والقيام بحق الأمانة التي حملها الإنسان**». ويفترض بالعلماء بكل أصنافهم الطبيعيّين والفيزيائيّين والاجتماعيّين والانسانيين أن يكونوا أكثر الخلق تقوى لله ومراقبة له. إنّ القرآن - وحده - القادر على إعادة بناء العلاقة واللحمة بين العلم والمعرفة ومقاصد القرآن العليا وتسخير العلم لخدمة البشرية لا تدميرها. **[إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ]** (فاطر:٢٨). **[وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ]** (البقرة:٢٨٢).

* * *

الأزمة السادسة: أزمة «المنهج العلميّ التجريبيّ»:

والقرآن - بعد ذلك - كريم لا يتوقف كرمه عند حد، وهو يعطي قاصده والمطَّرح بين يديه ما هُوَ بحاجة إليه حينما يحسن الطلب، ويحسن التدبُّر مع ملاحظة المحدّدات المنهجيَّة للقرآن الكريم، وعلينا في بادئ الأمر أن نسأل أنفسنا هل في القرآن الكريم «**منهج**» أو ليس فيه ذلك؟ إذا كان في القرآن الكريم «**منهج**» فما هو؟ وإذا لم يكن فكيف يمكن لكتاب إلهيّ كونّي أنزله الله ليعالج مشكلات البشر إلى يوم الدين أن يؤدى ذلك دون منهج ضابط؟ !. بادئ ذي بدء نستطيع أن نؤكد أنَّ في القرآن الكريم «**منهجًا علميًّا كاملا**»، لكن لا نجده مدونًا مفصّلا في سورة واحدة أو مجموعة آيات أو سور؛ بل نجده مكنونًا في القرآن الكريم —كلّه - بسائر سوره، ونستطيع أن نرصد المحدّدات المتعدّدة وأن نكتشف تلك المنهجيّة «**منهجيّة القرآن المعرفيَّة**».

إنَّ للقرآن المجيد أسلوبه ونظمه المتميّزين - كما هُوَ معروف - ولذلك وجّه أنظار المتدبّرين إلى الكثير من المحدّدات والسنن التي يمكن أن تساعد على الكشف عن «**المنهجيَّة المعرفيَّة القرآنيَّة**» التي أشرنا إليها، القرآن حين يتعامل مع «**المنهج**» نجده يقدم لنا كعادته منهجًا معجزًا لا يقاربه أيّ منهج توصل إليه البشر بجهودهم الذاتيَّة، وحين نقارن بين المنهجية القرآنيّة المعجزة وبين المناهج البشريّة الوضعيّة، نجد أنَّ المنهج القرآنيّ هُوَ المنهج الوحيد الَّذِي يتصف باليقينيَّة وفيه ما يعصمه من الوقوع في الأزمات التي تتعرض لها المناهج الوضعيَّة!!

إنّ علماء المناهج أعلنوا أنَّ هناك أزمة كبيرة في المناهج المعاصرة، مع أنّ العلماء كانوا قد أضفوا على المنهج صفة العصمة، وصاروا - الآن - يتحدثون عن «**أزمة المنهج العلميّ**» المعاصرة، نحن نعرف أنّ أوروبا حينما اكتشفت «**المنهج العلميّ**» أدّى ذلك بها إلى القيام بثوراتها المتلاحقة التي أوصلت الغرب - اليوم - إلى الثورة المعلوماتيَّة والثورة التقنيّة العليا وبدأت العمل به لإيجاد المنجزات التي يعيشها العالم اليوم في الرفاهيَّة التي صنعتها، والتي أوجدت أوضاعًا جديدة للبشريَّة. وحين اكتشفت البشريّة بداية الأمر «**العلم**» آمنت به إلى درجة الكفر بكل ما عداه، وأعلن (نيتشه) أنّ العلم هُوَ الإله الَّذِي نحتاج إليه، وأنَّه ما دام قد ظهر العلم فقد مات الإله بظهور العلم، وبروز دور «**المنهج العلميّ**»، وقد تمكّن الإنسان بذلك المنهج وبالعلم الَّذِي انبثق عنه من ناصية الطبيعة وصار يتحكم بناصية الحياة. وكان المنهج - آنذاك - يتَّصف عندهم باليقينيَّة،

حيث أيقنوا بدقة المنهج وقدرته الفائقة على أن لا يتخلَّف - أبدًا - عن الإنتاج، فإذا استخدم العلماء «**المنهج العلميّ**» لإنتاج شيء مّا فإنَّ هذا المنهج لا بدّ أن يوصّلهم إلى ذلك الشيء. وقال العلماء بناءً على المنهج - أيضا - «**بالسببيَّة الجامدة أو الصلدة**»، وأنّ المسبّبات إذا وجدت أسبابها فإنّها توجد لا محالة. تلك الأمور التي صارت - كلُّها - مسلَّمات علميّة، وكثيرًا ما كان يحصر بعضهم المسلَّمات بها. وفجأة اكتشف العلماء أنفسهم خروقات في المنهج «**العلميّ**» ما كانوا إلى سنوات قليلة يتوقعون حدوثها، فأحيانًا تركّب المقدمات وتوجد كلُّها، ثم لا تحدث النتيجة التي كان يفترض أن تحدث حتمًا. فأدى تكرار ذلك إلى تساؤل العلماء ثم العمل على محاولة الكشف عن الأسباب والشروط. الغائبة التي أوجدت تلك الاستثناءات التي تأكدت في بعض الحوادث في السنوات القليلة الماضية، منها سقوط مركبة الفضاء «**تشالنجر**»، أكد العلماء في ناسا أنَّه ليس هناك أيّ خلل فنّيّ يحمّلونه، أو يفسّرون به أسباب السقوط وبقى ذلك بمثابة لغز محيِّر لهم ولسواهم حتى اليوم، وكل ما قيل لم يكن يتجاوز فروضًا ضعيفة.

وفي «**كولومبيا**» كان موقفهم أكثر حرصا فكولومبيا قبل وصولها إلى الأرض بثوان انفجرت، وكل الظروف الفنيِّة والحسابات العلميَّة تؤكد أنَّها سليمة وستهبط بسلام، ولكنّها انفجرت قبل هبوطها دون سبب علميّ معروف، وأمضوا شهورًا طويلة بل سنوات بالبحث المضني لمعرفة أيّ سبب علميّ لهذا الأمر فلم يكتشفوا شيئًا إلى الآن، وما زال البحث جاريًا ولم يعط إلى اليوم تفسير علميٌّ. وهناك حوادث كثيرة - تبعت ولحقت - قد مرّت بالعلماء في العقود الماضية جعلت موقفهم من العلم والمنهج العلميّ يحدث عليه بعض التعديل، ووجدوا بعد القول باليقينيَّة أنّ عليهم التحوّل إلى القول «**بالاحتماليَّة**». ثم تحولوا عن القول بالسببيّة الجامدة، إلى القول «**بسيولة الأسباب**» في بعض الأحيان، وأنَّه قد توجد المقدّمات أو توجد الأسباب ويتخلَّف السبب، ولكن ما التفسير العلميُّ لذلك؟ لا تفسير!! هذا الأمر قد لا يقلق الكثيرين من الباحثين ولكنَّه خطير جدًا على حاضر البشريَّة ومستقبلها.

موجة «**صحوة التديّن**» التي أخذت منذ السبعينات تنتشر في أوروبا والولايات المتحدة، في هذا المجال وخاصَّة بين العلماء والباحثين صارت تتجه نحو نوع من الغيبيّة القلقة، إذ أنّ العالم بطبيعته لا يستطيع أن يتجاهل ظواهر كهذه حتى لو أراد ذلك، وحاول أن يبدي قلة اكتراث بها، فإنّ الأمر يظل معه في ذهنه وفي ضميره يحركه ويقلقله من أجل أن يحصل على تفسير علميّ يستريح له، لماذا يتخلف «**المنهج العلميّ**»

وتوجد المقدّمات وتتخلّف النتائج وتوجد الأسباب ولا يوجد المسبَّب ولو في بعض الأحيان؟ لا جواب وحين لا يجد العالم جوابًا أو تفسيرًا مقنعًا فقد تتجه به تأملاته نحو الخرافة المقنّعة أو السافرة.

أمّا القرآن المجيد، فإنَّه يقدّم لنا جوابًا في غاية البساطة يحافظ به على «**المنهج العلميّ**»؛ بل ويعزّز الثقة فيه، وينبّه إلى البعد الغائب عن ذهن المتعامل مع «**المنهج**» وهو البعد الَّذي حرمه من الوصول إلى تفسير لهذه الظاهرة دون المساس «**بيقينيّة المنهج**»، أو صلابة السببيّة ألا وهو بُعد الغيب. إنّ «**المنهج العلميّ**» يقول: إذا اتَّحد المصدر اتَّحد الناتج، وإذا اختلف المصدر اختلف الناتج، وحين يجد «**المنهج**» أنّ ظاهرة مَّا قد تخلّفت ولا يعرف لذلك سببا ملموسا، فإنَّه قد يسارع إلى القول بتخلُّف المنهج عن الإنتاج أو عجزه، فيستحق المنهج بذلك الاتهام وأن يوصف بعدم «**اليقينيّة**» ولكن حين نذهب إلى «**سورة فاطر**»، نجد كلامًا كثيرًا في آيات هذه السورة الهامَّة، ينبّه إلى هذه الظاهرة، ظاهرة اختلاف المصدر ووحدة الناتج مثلاً يقول جل شأنه: **[وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ]** (فاطر:١٢)، هذه الآية الكريمة تحلّ أزمة من أزمات «**المنهج العلميّ**» أزمة في غاية الخطورة هذه الأيام، إذا اختلف المصدر يجب حتمًا أن يختلف الناتج في نظر «**المنهج العلميّ**»، ذلك يعني أنَّ المياه العذبة ينبغي أن تعطينا ناتجًا يتَّسم بالحلاوة، فالسمك يكون ذا طعم عاديّ أو حلو، وإذا جئنا إلى سمك البحر الملح، يفترض أن يكون السمك - بناءً على قوانين المنهج العلميّ - مالحًا، فذلك ما ينسجم مع الناحية العلميّة، كما أنّ الكثافة في الماءين مختلفة، فإذا حمل الماء العذب السفن يفترض بالمالح أن لا يحملها أو العكس، ولكن نجد الباري - تبارك وتعالى -، يذكر لنا في هذه الآية الكريمة، ويبيّن أنّ اختلاف المصدر لا يؤثّر - حتما ولوحده - في الناتج، وأنّ الناتج بقي موحدًا رغم اختلاف مصدر الإنتاج **[وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ]** (فاطر:١٢)، وفي الآية الأخرى الواردة في سورة الرعد، يذكر لنا - جل شأنه -: **[وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ]** (الرعد:٤)، ماء واحد وتربة واحدة ولكنَّها تنبت ناتجًا مختلفًا في الطبيعة واللّون والطعم

وكثير من الخصائص، ذاك تفاح؛ وذاك برتقال؛ وذاك فيه خضرة، وذاك فيه حمرة أو لون آخر؛ فمع وحدة المصدر اختلف الناتج. المنهج العلميّ لم يستطع أن يقدم تفسيرًا علميًّا مقنعًا لهذه الأمور، لماذا؟ لأنه قد استقر في العقل الأوروبّي وسرى منه إلى سائر المدارس، أنّ العلم لا علاقة له بالغيب وهناك خشية، كبيرة جدًا، لدى العلماء بأن يربط العلم بالغيب فذلك قد يجر إلى هيمنة الكنيسة -عدو العلم- من جديد، ولذلك فهم لا يريدون أن يقروا بأنّ هناك غيبًا، بل يريدون تفسيرًا علميًا يقدمه العلم نفسه ليفسر به عجز منهجه عن تفسير تلك الظواهر، أمَّا القرآن الكريم فإنَّه يفسّرها بوضوح، فيبيّن أنّ كل ما يحدث في الكون لا ينتج عن علاقة أو جدل بين الإنسان والطبيعة وحدهما، أو منفردين كما يؤكد العلم، ويدعي المنهج. لأنَّ للإنسان والطبيعة خالقا هُوَ الله، وهناك الغيب، إنَّ هناك أهم طرف في هذه العلاقة جرى تجاهله هُوَ الله- تبارك وتعالى- الخالق المالك البارئ المصور، والإنسان مستخلف مخلوق والطبيعة مسخّرة بأمر الخالق- جل شأنه- ، فحين يحتار العالم الطبيعي في تفسير هذه الظواهر فلأنَّه لم يضع في حسابه «**بُعد الغيب**» ولم يدرك تفاعله مع الإنسان والطبيعة، وتوهم أنّ ما يحدث هُوَ حاصل تفاعل بين الإنسان والطبيعة فقط، ولغياب الإيمان بالله وتجاوز الغيب فإنَّه يعجز عن إدراك تفسير تلك الظواهر، فيبدأ بالتراجع عن مقولاته العلميَّة التي لم تؤت إلا من استبعاد تأثير الله -سبحانه وتعالى- وما أودعه الله في عالم غيبه**!** وقد يرتد الإنسان بعد كل هذه المنجزات العلميّة إلى «**الخرافة**» وتلك كارثة كبرى، فلو أدرك الإنسان هذه المعادلة البسيطة: إنّ هذه الطبيعة مسخّرة، وأنّ من سخّرها هُوَ خالقها، وخالق الكون والإنسان، وأنَّه هُوَ الَّذِي يأذن لها أن تنتج أو لا تنتج، وأنَّها حين تنتج فإنَّما تنتج بأمره وفقًا لسنن خلقها، وقوانين قدَّرها، والإنسان قد يدرك السنن ويغفل عن معرفة خالقها. هذه السنن التي قد يخيّل للإنسان في بعض الأحيان أنَّها لم تنتج ويذهب إلى تفسيرات لا تغني عنه شيئًا فيزداد ضلالا وتيهًا عن الله.

هنا يتقدم القرآن لحل هذا الإشكال المنهجيّ ويستوعب «**أزمة المنهج**» ويقول له: ما زلت أيها المنهج العلميّ على شئ من حق، وما زال «**المنهج العلميّ**» فاعلا، وليكون على الحق، ولا يختلّف، فذلك أمر لن تدركه حتى تستحضر البعد الثالث: الإيمان بالله والغيب، تلك سنن الله لا تتغيّر ولكن هناك غيبًا وهناك خالق للغيب والشهادة، عليم بكل منهما يجب أن تدرك فعله في الواقع، فما يحدث في الواقع لا بد من

ملاحظة الأطراف الثلاثة فيه، أولها الله - تبارك وتعالى - والغيب بصفة عامّة، ثم الإنسان المستخلف المخلوق، وفعله في الكون والطبيعة. الّذي يتوقّف تأثيره على استيفاء كثير من الشروط والأسباب ليكون مؤثّرًا!!

وبالتالي فإنّ العلماء الغربيّين خاصّة لو تخلصوا من عقد الكنيسة وصراعها ضد العلم، وعلموا أنّ الدين عند الله الإسلام لعلموا أنّ خرق السنن وعدم إنتاج المنهج في بعض الأحيان تنبّه إلى ضرورة الإيمان بالله، واستحضار بعد الغيب حين ينظر في كل حدث يشهده الواقع، ولو حدث هذا لما احتاج علماء «**المنهج**» إلى اللجوء إلى القول بالاحتماليّة والنسبيّة و... و... و...، مما قد يهدّد البشريّة كلّها بفقدان انجازاتها ويهمّش العقل العلميّ وإنجازاته، وقد يعيده إلى ظلمات العقل الخرافيّ غير المنضبط، وتدخل البشرية دورة تيه جديدة. **[وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ]** (الأنعام: ١١٠).

إنّ القرآن الكريم - في هذه الحالة - يعزّز الموقف العلميّ ويطهّر «**المنهج العلميّ**»، ويقوم بعمليَّة تصديق عليه وتنقية له من جوانب النقص واستحضار للأبعاد الغائبة عنه، ويقوم بعد ذلك بالهيمنة عليه ووضعه في إطاره، واعتباره قائمًا على تلك السنن الثابتة التي لن تجد لها تحويلا، ولن تجد لها تبديلا.

الأزمة السابعة: المرض، والجهل، والفقر، وارتفاع معدلات الجريمة.

نتيجة تصحّر الحياة مثل تصحرّ الأرض وأكثر؛ وفقدان روح الأخوّة الإنسانيَّة وما يغذى الجانب النفسيّ، والجانب القلبيّ والعاطفى لدى الإنسان وطغيان شهوات الإنسان الحسيَّة عليه - مع عجز التديُّن المنحرف عن إعادة الروح للحياة الجافَّة المتصحّرة - وعجز العلم المنبتّ عن القيم وعن ايقاف التصحُّر والتلوث عند حدّ. سواء أكان ذلك على مستوى الدول والحكومات التي تغزو غيرها لاستلاب مواردها أو فتح أسواقها، أو إخضاع شعوبها وإنسانها أم على مستوى الأفراد والحكومات والدول والجماعات، فانتشرت السلوكيّات الحياتيَّة المدمّرة، والانحرافات الخطيرة، وتضاعفت الجرائم على اختلافها: فالشح والجشع والطمع والغرور والاستقواء على الضعفاء كل هذه النزاعات لم تعد مهدّدة للسلام والأمن العالميَّن فقط، بل صارت خطرًا على الحياة كلّها والأحياء كلّهم.

* * *

الأزمة الثامنة: الأزمة الماليَّة المعاصرة:

التي يعرف القاصي والداني أنّها أزمة نابعة من انحراف في فهم دور «**المال**» في الحياة الاقتصاديّة وانحراف في فهم دور النقود خاصّة، والانسياق وراء الربا واستغلال فائض القيمة والاحتكار والفساد في سائر جوانب الحياة. والطمع والجشع وما إليه، وإعلاء قيمة المال على قيمة الإنسان، وتحكم «**السفهاء**» بأموال البشريَّة، وأقوات الأرض المقدّرة. هذه الأمور وكثير غيرها كانت وراء هذه الأزمة الخطيرة التي كشفت عن عورات «**النظام الرأسماليّ**» وعرّته بأكثر مما كشفت عن عورات النظام الاشتراكيّ حين صدرت شهادة وفاته وتفككت الدولة التي بنيت عليه. والتحقت غريمتها الأخرى بالمنظومة الرأسماليّة.

وهذه الأزمة –أيضًا- لا يمكن لغير الكتاب الكونيّ -القرآن المجيد- أن يعالجها ويستطيع المتدبّرون العالمون بالاقتصاد والمال والقرآن المجيد أن يستنبطو حلولا ناجعة لهذه الأزمة وذلك وفق المنهج الإلهيّ في سياسات المال وعمران الأرض، وعدالة التوزيع وتنظيم الاستهلاك وتجنُّب الانحرافات التي ارتكبها الإنسان في هذه المجالات.

وهناك أزمات ومشكلات كثيرة أخرى يمكن الاستطراد بذكرها، وهي مما يمكن للقرآن المجيد أن يقدم مفاتيح لمعالجتها، وايقاف أضرارها، وتجاوزها.

وهناك المشكلات الخاصة بالبيئات المسلمة وما أكثرها فمشكلات البيئآت المسلمة يمكن استعراضها في كتب عديدة، لكنّ القرآن المجيد، فيه سبل الهدى لمعالجتها لو «**تدبّرته الأمّة حق التدبُّر**».

لعل عرضنا لبعض الأزمات التي يمكن مقاربتها من «**مدخل الأزمة**» قد أبرز لنا جوانب نبهَّت إلى أهميَّة هذا المدخل في «**التدبُّر**». ونستطيع أن ندرب قراء القرآن على «**كيفيَّة استعمال هذه المداخل**» لاستنباط الحلول لأزماتنا ومشكلاتنا من هذا القرآن الَّذِي يهدى للتي هِيَ أقوم، وتحديد معالم سبل معالجتها.

في مدخل الأزمة نحو أحوج ما نكون إلى دراسة وتحليل الأزمة، وتركيبها سؤالا دقيقًا، إضافة إلى تنزيل القرآن ونحن نبحث عن الحل والجواب الشافي على القلب.

إنَّ القرآن المجيد نزل على قلب رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلّم- كما تقدم - ونزول القرآن على القلب له معنى شديد الأهميّة -كما تقدم، إذ أنه يشير إلى أنّ العلاقة مع هذا القرآن ينبغي أن لا تبنى بطريق اللسان- وحده- وترديد الآيات والكلمات بتحريك اللّسان ولكن تبنى هذه العلاقة في إطار «**الاستيعاب القلبيّ**» وفهمها بوعي القلب أولا، وبحسب استقبال القلب لآيات الكتاب الحكيم يكون الانفعال بالقرآن، فحين يقول- تبارك وتعالى-: **[نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ]** (الشعراء:١٩٣-١٩٤) وينصّ على أنَّ النزول كان على القلب، ثم يقول تبارك وتعالى **[لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ]** (القيامة:١٦-١٧)، فإنّ لذلك دلالات هامَّة فكلّنا يعلم أنّ الإنسان حين يريد أن يحفظ نصًا يلجأ إلى تكراره، وترديده بلسانه مرات عديدة لكي يبلغ درجة الحفظ له بعد أن تتفتح الذاكرة لحفظه، وتنشغل قوى الوعي بفهم معناه.

أمَّا القرآن الكريم، فالأمر معه مغاير، فأنّه ينزل أول ما ينزل على القلب أولا فيشتبك مع قوى الوعي الإنساني ليزيل ما قد يكون فيها من رؤى مغايرة ويحل رؤيته الكليَّة القويمة محلّها مما يجعل حركة اللّسان - بعد ذلك- حركة تابعة لحركة القلب وبشاشته مع القرآن الكريم وانفعاله به، وذلك يعني أنَّ الإنسان الّذي يريد أن يلج إلى رحاب القرآن متدبّرا لا بد أن ينفعل قلبه به أولا، ويخبت قلبه له، ويتهيّأ القلب قبل أيّ شيء آخر لاستقبال أنوار القرآن المجيد والتفاعل مع خطابه.

ما الحل؟ وما سبيل الخلاص إذن؟ ربنا تبارك وتعالى يقول: **[أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ]** (الحديد:١٦)، وهذا مفتاح مهم «**للتدبّر**» في الحل، فالإنسان أحيانًا يطول عليه الأمد أو المسافة الزمنيّة بينه وبين مصادر هدايته الإلهيّة، وينابيع الخير في بيئته، وبالتالي فإنّ قلبه يصاب بمرض القسوة، وتصاب نفسه بالتجُّمد، وحياته بالتصحُّر، وإذا أصيب الإنسان بهذين الدائين صار خطرًا على ذاته، وخطرًا على الآخرين، وهذا ما يحدث- الآن- في أنحاء مختلفة من الأرض. ولا يتوقَّع من إنسان دمِّرت فطرته، وقطعت صلته بخالقه ومصادر هدايته، واغترب عنهما فاغترب عن ذاته أن يحسن الخلافة في أرض الله، أو يعمر الكون.

فالكتاب الكونّي الوحيد بين يدي الإنسان هُوَ القرآن الكريم، والقرآن الكريم لم يكتشفه أهله بعد، فهم يحملونه بطريقة مماثلة للطريقة التي حمل بنو إسرائيل بها التوراة: **[مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ]** (الجمعة:٥) فالمسلمون والعرب منهم، وهم يعيشون أزماتهم هذه التي - كما قلنا - تتألّف من أزمات خاصّة بهم من ناحية، وأزمات أخرى تنعكس عليهم من آثار الأزمات العالميّة، لم يكتشفوا ما في هذا القرآن المجيد من «**قدرات تركيبيّة عالية قادرة على إعادة تركيب ما تفكك على أيدي البشر**» من شئون الحياة. والجهود التي بُذلت منذ القرن الثاني لهجرة النبي - صلى الله عليه وآله وسلّم - لاستجلاء ما في معاني القرآن الكريم في التفسير والتأويل وفي ما سواهما[1]، لم تستطع إلى الآن أن تقدم لنا من القرآن كتاب «**استخلاف ودليل عمران وحياة ومنطلقًا ومصدرًا لمعالجة أزمات البشريّة ومشكلاتها**»، لأنَّ النظر إلى القرآن كاد ينحصر في الأحكام وفي الجانب التعبّديّ، وجانب العبرة والعظة واستخلاص الدروس من قصص القرآن وأمثاله، وفي القرآن الكريم كل ذلك ولا شك ولكن فيه إضافة لذلك سبيل الخلاص، ومنهج الإنقاذ.

[1] - راجع العلواني، أزمة الإنسانية ودور القرآن في الخلاص منها (القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٦).

الخاتمـــــــــــــــــــة:

لعلّ هذه الإشكاليات القلائل ينبّهن من يقرؤهن إلى أهميّة «**التدبُّر**» وضرورته لكل مسلم ومسلمة بقطع النظر عن التخصّص والدرجات العلميَّة ومستويات المعرفة والذكاء، فما من قارئ قادم إلى القرآن بحب وشوق وانفتاح إلاّ وله من كرم هذا القرآن نصيب ما نصحت توبته، وصلحت نيّته، وصدقت قوى وعيه في انفتاحها على القرآن المجيد.

إنّ «**تدبّر القرآن المجيد**» بعد ترتيله ترتيلا وتلاوته حق التلاوة يصلح أن يكون «**علماً**» قائمًا بذاته ذا جانبين: جانب نظريّ، لعل ما قدمناه يشكل نواة له، وجانب تدريبيّ تطبيقيّ يقوم عليه مدرّبون تربويّون أكفاء «**كابدوا وجاهدوا أنفسهم وعقولهم وقلوبهم حتى لانت للكمات الله، وأخبتت وخشعت لجلال هذا القرآن وجماله وبهائه**».

إنّ القرآن المجيد يتزل على القلب، ولا بد من استجاشة القلب، وتنوير الوجدان، وإعداد قوى الوعي الإنسانيّ لاستقبال هذا «**القول الثقيل الميسَّر للذكر**» في الوقت نفسه، فكأنّه يقع في دائرة «**السهل الممتنع**» وللقرآن المثل الأعلى.

وحين يكون الأمر كذلك فلا بد من تدريب القلب والعقل والنفس والوجدان وقوى الوعي الأخرى بعد إعداد نظريّ مناسب يهيّؤها لإدراك «**حقيقة التدبُّر**» ومنهج ممارسته. ولذلك فإنّ على حملة القرآن الكريم أن يعملوا على وضع «**طرق تربويَّة لتدريس القرآن الكريم وتعليم مناهج تدبّره**» في سائر برامج إعداد المعلمين والخطباء والدعاة، ولعله في يوم مّا يصبح قسمًا متخصّصًا من أقسام «**كليّات التربية**» في سائر أنحاء العالم. كما حدث بالنسبة لفن ما يعرف __ اليوم _ creative thinking .

إنّ المسلمين - اليوم - أحوج ما يكونون إلى كسر وإزاحة سائر الحواجز بينهم وبين القرآن المجيد الطارف منها والتليد، الموروث منها والمعاصر. فلقد اتبع بعض الغَفَلَة سنن من قبلنا من الأمم مع كتبهم فقالوا بضرورة الحذر من فهم القرآن بشكل شخصيّ مباشر ولا بد من توسيط المفسّر والتفسير قبل تدبّر أيّ

شيء من القرآنّ يقول ابن هبيرة: «**ومن مكائد الشيطان تنفيره عباد الله من تدبّر القرآن، لعلمه أنّ الهدى واقع عند التدبُّر**»[١].

وهذه المكيدة الشيطانيّة تأخذ - عند البعض - شكل الورع والحذر، بل قد يستدل البعض بالحديث، فيقول: إنّ القول بالقرآن بالرأي قد نهى عنه رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلّم - وهذا صحيح، ولكنّ المنهيّ عنه، لا الرأي المنبثق عن تدبّر وغوص عميق من أهل التدبُّر القادرين على فهم لسان القرآن الميسَّر للذكر، الداعي للتذكّر والتفكّر، بل تلك الآراء الخطيرة الغثَّة من جهلة لا يكادون يفرقون بين آي القرآن وشعر امرئ القيس ونزار قبّاني.

يقول ابن القيِّم: «**من قال: إنّ له (أي للقرآن) تأوّلا لا نفهمه ولا نعلمه، وإنّما نتّلوه متعبِّدين بألفاظه، ففي قلبه منه (أي: من القرآن) حرج**»[٢].

فمن أهم صفات القرآن وخصائصه أنّه ميسَّر للذكر، وقد يسّره الله - تبارك وتعالى - بذاته العليّة ثلاث مرّات: الأولى حين نزّله على قلب نبيّه، وأخرجه من دائرة الغيب وحيًا إلى عالم الشهادة. والثانية حين يسّره بلسان نبيّه عليه الصلاة والسلام لعلهم يتذكرون.

والثالثة حين يسَّره للذكر، ودعا كل من لديه استعداد أو قدرة عليه للتذكر والتدبُّر في هذا القرآن الميسّر له.

إنّ كل مؤمن مسلم مطالب بأن يعتقد بيسر القرآن وسهولة فهمه، ووضوحه وبيانه، وقدرته على فهم أكثره أو كثير منه - عند تدبّره، وبذله الجهد المطلوب للوصول إلى ذلك، ولكن الناس في العلم والفهم على مراتب. وقد نقل عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قوله: «**التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها. وتفسير لا يعذر أحد بجهالته. وتفسير يعلمه العلماء.** [٣] **وتفسير لا يعلمه إلاّ الله**»[١].

---

[١] - راجع ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة ٣/ ٢٧٣

[٢] - انظر محمد ايوب الزرعي، التبيان في أقسام القرآن ١٤٤. وقد ناقش ابن عاشور هذه المسالة في المقدمة الثالثة من مقدمات تفسيره مناقشة شاملة.

[٣] - وهذا الذي يعلمه العلماء لخصه ابن عاشور بعد نقاش طويل في مقدمته الرابعة «فيما يحق أن يكون غرض المفسِّر» وبين فيها الجدل الذي دار حول علاقة القرآن المجيد بالعلوم المختلفة، فقال: (.. إنّ علاقة العلوم بالقرآن على أربع مراتب: الأولى: علوم تضمّنها القرآن كأخبار الأنبياء والأمم وتهذيب الأخلاق والفقه والتشريع والاعتقاد والأصول والعربيَّة والبلاغة.

وهذا يعني أنّ المتدبّر له في القرآن المجيد نصيب وافر ومساحة واسعة للتدبّر والتفكّر والنظر والتعقّل والتذكّر والاتّعاظ يتجاوز نصف الكتاب الكريم حتى لو لم يكن من العلماء. فأكثر القرآن الكريم مفهوم بيّن واضح للمتدبّرين فلا ينبغي أن نطلب من أكثر شرائح الأمَّة عددًا وتأثيرًا وهم السواد الأعظم أن يغلقوا عقولهم وقلوبهم، ويعلّقوا تدبّرهم للقرآن أو فهمهم له على الرجوع إلى الفقيه أو المفسّر أو كتب التفسير التي شحن الكثير منها «**بالإسرائيليّات**». إنّ استمرار الناس بقراءة القرآن بقلوب غافلة، أو الاستماع إليه بأفئدة ذاهلة مدخل من أهم مداخل الشيطان لدفعنا إلى هجره. ولعل هذا الهجر - هُوَ أهم أسباب عجزنا وتخلّفنا وذلّنا وفقرنا، وجهلنا وأمراضنا، ولن نغادر هذه المستنقعات بدون الإقبال على القرآن بقلوب محبَّة له، عاشقة لنظمه وأسلوبه وفصاحته وبلاغته تفضل قراءته على كل قراءة، والاستماع إليه على كل مسموع، وتدبّره على سائر أنواع التأمّل والتفكر.

ولإنماء «**حب القرآن**» في القلب وسائل وآليَّات ونتائج ومقدّمات وعلامات ظاهرة يلحظها الناس على المتدبّرين. وهناك علامات خاصّة يحسُّها المتدبّر ويشعر بها في نفسه، قال أَبو عبيد: «**لا يسأل عبد عن نفسه إلاّ بالقرآن فإن كان يحبّ القرآن فإنّه يحب الله ورسوله..** » إنّ الناس قد تلجأ إلى الأحلام والمنامات طلبًا للمبشّرات، ولو لجأوا إلى القرآن المجيد لبلغوا ما يريدون بنور ويقين وعلم من غير أن يعبث بهم المئولون والمشعوذون؛ ففي القرآن المجيد من كل مثل، وفي بشاراته وإنذاراته، وتصنيفه للناس ما يرى الإنسان ما يبحث عنه، فيرشد الحائر، ويطمئن القلق، ويهدى التائه الضال. إنّ التفكر في أسماء القرآن، وصفاته ومعرفة دلالاتها من أهم الوسائل التي تحبّب القرآن للمؤمن. وكذلك إدراك دور القرآن في هدايتك وإخراجك من الظلمات إلى النور، والنأي بك عن الضلالة والعمى، وقيادتك نحو النور والهدى، هذه - كلها - وكثير غيرها من وسائل إعانة المؤمن على حب القرآن والتعلّق به. يقول ابن تيمية: «**من تدبّر**

الثانية: علوم تزيد المفسّر علماً كالحكمة والهيأة وخواص المخلوقات.

الثالثة: علوم أشار القرآن إليها أو جاءت مؤيّدة له: كعلم طبقات الأرض والطب والمنطق.

الرابعة: علوم لا علاقة لها بها، إمّا لأنها لا تعين على خدمته كعلم العروض والقوافي). أ هـ ابن عاشور، ١/٤٥.

(١) - الذى لا يعلمه إلاّ الله من تفاصيل الغيبيّات والقيامة والحساب والبعث، التى لا هي تأويل لبعض ما ورد في القرآن. ولذلك قال جل شأنه: [هَلْ يَنْظُرُونَ إِلا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ] (الأعراف:٥٣)

القرآن طالبًا الهدى منه تبين له طريق الحق»[١] وقد يستطيع المتخصّصون في التربية وعلم النفس من المحبّين للقرآن أن يقدموا دراسات مفصَّلة وافية في كيفية تعليم الناس حبّ القرآن المجيد والتعلّق بتدبّره.

كما أنَّ إدراك «**مقاصد القرآن المجيد**» من الوسائل الهامَّة في حمل سائر مستويات المؤمنين، وفي مختلف المراحل العمريَّة على حب القرآن المجيد والتعلّق به وبقرائته وتدبّره. وقد أحصى العلماء من هذه المقاصد الكثير[٢] و«**تدبّر القرآن**» من أهم الوسائل للكشف عن المزيد من هذه المقاصد.

إنّ القرآن المجيد المكنون يشتمل على الوحي الإلهيّ. وإنّ هذا الكون بكل أشيائه وما فيه من كلمات الله المشيّأة التي لا حصر لها. «**فالقرآن والكون معًا**» جماع كلمات الله - تعالى - تجد في الجمع بينهما، وقرائتهما معًا، وهو ما اصطلحنا على تسميته «**بالجمع بين القراءتين**» علوم الدنيا والآخرة، وقصص وتاريخ الأولين والآخرين، وأهم الحقائق والسنن والقوانين الكونيَّة والاجتماعيَّة والتشريعيَّة، وسائر سبل الإصلاح وكل مناهج التعمير والتغيير، ونماذج لكل أنواع البشر. عبر القرون تستخلص منها الدروس والعبر والعين والأثر. ومفتاح ذلك - كلّه - «**التدبُّر**»!! إنّ من آتاه الله القدرة على التدبُّر فقد أوتى خيرًا كثيرًا، بل أوتى الخير كلّه. إنّ البعض يطلق على من أوتى حظًا من قليل العلم الّذي آتاه الله والإنسان أو المعرفة لقب «**عالم ومثقف**» وعندي أن من أوتى «**تدبّر القرآن**» فقد جمع العلم من أطرافه، واستوعب وتجاوز المثقفين الذين لم يؤتوا من تدبّر القرآن حظًا.

إنّ المفاتيح التي ذكرنا والوسائل التي شرحنا ما هيَ إلاّ غيض من فيض ما يمكن أن يكتب عن التدبُّر وفيه، وكلّنا أمل أن نواصل ويواصل غيرنا من محبي القرآن الكتابة في هذا المجال حتى يصبح «**تدبّر القرآن**» علمًا قائمًا بذاته يستطيع أن يربط الناس بالقرآن، ويعزّز علاقتهم به؛ لتوجد الأجيال المسلمة القادرة على أن تجعل من القرآن خلقها وسلوكها وأسلوب حياتها[٣]. فمنهجه قرآنيٌّ - فيتأسّى المسلم للسير عليه برسول الله

---

[١] العقيدة الواسطيّة ١٠٣.

[٢] - راجع لرشيد رضا، الوحي المحمدي ، والمقدمة الرابعة لابن عاشور، ١/٤٠ - وما بعدها، و الغزالي، المحاور الخمسة، والعلواني، من التعليل إلى المقاصد القرآنيَّة العليا الحاكمة، وغيرها.

[٣] - إنّني أرجو أن يفرّق الناس بين ما نرمي إليه وندعو إليه وبين ما تدعو إليه فئة انحرفت عن سبيل القرآن المجيد وأخطأت الطريق إليه من أولئك الذين نعتوا أنفسهم «بالقرآنيّين» ونفوا بيان القرآن وتأويله في الواقع من سنن المصطفى وسيرته. إنّ المصطفى - صلى الله عليه وآله وسلم - كان قرآنا يمشي على الأرض صاغ القرآن المجيد شخصيَّته، وصنعه الله على عينه أدى الرسالة فتلقى الكتاب، وتلاه على الناس وعلمهم آياته، والحكمة في تأويله وتطبيقه في الواقع وبناء

-صلى الله عليه وآله وسلّم- في ذلك. وحذار أن يذهب الظن أو الوهم بأحد مذاهب خاطئة، فيتوهم من تأكيدنا الدائم على ضرورة أن يكون المؤمن المسلم قرآنيًّا أنّنا نشجع تلك النابتة التي تنعت نفسها «**بالقرآنيّين**» وينكرون السنّة ويتجاوزونها والعياذ بالله؛ فهؤلاء ما هم بقرآنيّين ولو كانوا كذلك لأدركوا أن «**من يطع الرسول فقد أطاع الله...** » وكيف يكون قرآنيًّا من ابتعد وما هُوَ بذاك - عن رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم - وهديه وسننه وسيرته؟! وقد بلغني أن أحدهم صار يسجد على ذقنه وهمًا منه أنّ السجود يكون بالصفة التي وردت في قوله تعالى: **[وَيَخرُّونَ للأَذْقَان يَبْكُونَ وَيَزيدُهُمْ خُشُوعًا]** (الإسراء:١٠٩) ولا أدري إن كان هذا الّذي يزعم أنه السجود يشترط له أن يكون مقترنًا بالبكاء ؟. وإذا لم يكن قادرًا على البكاء، فهل يستبدله بنوع من «**الولولة والنياحة**» أم ماذا؟!

إنّ دعوتنا إلى الارتباط بالقرآن والانشغال به عما سواه - هي بحد ذاتها دعوة إلى التشبُّث بتلاوة رسول الله وبتعليم رسول الله وبتأويل رسول الله للقرآن وبسنّة رسول الله ومنهجه في بيان القرآن - صلى الله عليه وآله وسلم - وتأويل وتفعيل آيته وإيجاد الأمَّة الشاهدة الخيّرة الوسط بهدايتها، فهؤلاء لم يشهدوا أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم - وآل بيته، ولم يشابهوا أحداً منهم بل أشبهوا من عرفوا في التاريخ الإسرائيليّ «**بالقرَّائين**» وهؤلاء من الذين يصدّون عن القرآن - والعياذ بالله - ويضرّون بالمهتدين به وبالدعوة إلى نبذ حالة الهجر والفصام بين القرآن والبشريّة، فليحذر المتدبّرون الاغترار بمقولاتهم. نسأل الله - سبحانه - أن يجعل القرآن ربيع قلوبنا وجلاء همومنا وأحزاننا، وأن ينفعنا وينفع المسلمين بما قدمناه. إنّه سميع مجيب.

وآخر دعوانا: أن الحمد لله رب العالمين.

أمّة هي خير أمَّة أخرجت للناس به وتزكيتها به. فما آمن بالقرآن - ولو زعم - من تجاوز رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ونفى عنه مهامه، وأعطى بزمامه إلى الشيطان ليجتاله عن القرآن .

قائمة المراجع والمصادر

ابن تيميه. مجموعة الرسائل والمسائل. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٣.

ابن حزم. حجة الوداع. القاهرة: مكتبة الخانجي، د.ت.

ابن خلكان. وفيات الأعيان. بيروت: دار صادر، د.ت

ابن رجب. ذيل طبقات الحنابلة.

ابن عاشور. مقدمات تفسير التنوير والتحرير. تونس: الدار التونسيه للنشر، د.ت.

ابن عبد البر. جامع بيان العلم وفضله. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٣٩٨.

ابن عربي. الفتوحات المكيّة. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، د.ت.

ابن قاضي شهبة. طبقات الشافعية. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٧.

أبو الفضل، منى. و العلوني، طه. نحو بناء علوم الأمة الاجتماعية والشرعية. القاهرة: دار السلام، ٢٠٠٩.

أبو القاسم، محمد. الأزمة الفكريَّة. بيروت: دار الهادي، د.ت.

الأعظمي، مصطفى. كُتَّاب النبيّ -صلى الله عليه وآله وسلّم.

الأنصاري، زكريا. شرح الفاكهي على لقطة العجلان في أصول الفقه.

الإيجي. المواقف. بيروت: دارالكتب العلمية، ١٩٩٨.

بيرك، جاك. القرآن وعلم القراءة. ترجمة: منذر عياشي حلب: مركز الإنماء العربي، ١٩٩٦.

الذهبي. تاريخ الإسلام. القاهرة: د.ن، ١٩٧٩.

الرازي. التفسير الكبير. بيروت: دار الفكر، ١٩٨٥.

الرازي. المحصول في علم أصول الفقه، تحقيق: طه العلواني. بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٢.

ربيع، حامد. مستقبل الإسلام السياسي. بغداد: معهد البحوث والدراسات العربيّة، ١٩٨٣.

رضا، محمد رشيد. الوحي المحمدي. القاهرة: دار المنار، ١٩٧٤.

الزرعي، محمد أيوب. التبيان في أقسام القرآن.

الزركلي. الأعلام. بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٤.

زكي، حسن عباس. الإنسان والوجود. القاهرة: دار النهار، ١٩٩٩.

السبكي. الدين الخالص. القاهرة: المكتبة المحمودية السبكية، ١٩٩٠.

السيوطي. الفتح الكبير. بيروت: دار الكتاب العربي، د.ت.

السيوطي. تاريخ الخلفاء. القاهرة: د.ن.، ١٩٥٢.

السيوطي. طبقات المفسرين. القاهرة: مكتبة وهبة، ١٩٧٦.

السيوطي. الإتقان في علوم القرآن. بيروت: دار الفكر، ١٩٧٣.

الشاطبي. الموافقات في أصول الأحكام. دمشق:دار الفكر،١٩٨٠.

الشوكاني. البدر الطالع، تحقيق: حسين بن عبد الله العمري. دمشق: دار الفكر، ١٩٩٩.

العلواني، رقية. تدبّر القرآن بين النظريّة والتطبيق. البحرين: جمعية النور، ٢٠٠٢.

العلواني، طه. أزمة الانسانية ودور القرآن في الخلاص منها. القاهرة: دار الشروق للنشر، ٢٠٠٦.

العلواني، طه. أزمة الإنسانية ودور القرآن في الخلاص منها. القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٦.

العلواني، طه. التوحيد والتزكية والعمران. بيروت: دار الهدي، ٢٠٠٣.

العلواني، طه. الوحدة البنائية للقرآن المجيد. القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٦.

الغزالي، أبو حامد. إحياء علوم الدين. القاهرة: المكتبة التجارية، ١٩٧٥.

فهرس الآيات

(الألف)

- [أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ .....] (الحديد:١٦) ....
- [أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ .....] (الحديد:١٦) ....
- [أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ .....] (السجدة:٣) ....
- [إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ .....] (النور:١١) ....
- [إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ .....] (فصلت:٤١-٤٢) ..
- [إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ] (الرعد:١١) ....
- [إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ] (القصص:٥٠) ....
- [إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ .....] (محمد:١٢) ....
- [أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا .....] (الأنعام:١٥٦-١٥٧) ..
- [إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ .....] (الأنفال:٢٢-٢٣) .
- [إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ] (القيامة:١٧) ....
- [إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ .....] (الأحزاب:٧٢) ....
- [إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ] (الحجر:٩) ..
- [إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ .....] (الأنفال:٢) ....
- [إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ] (يس:٨٢) ....
- [إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ] (يس:٨٢) ....
- [إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ] (النحل:٤٠) ....
- [إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ] (النحل:٤٠) ....
- [إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ] (فاطر:٢٨) ....
- [أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ .....] (الأنعام:١٥٧) ....

(التاء)

- [تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ .....] (الإسراء:٤٤) ....

- **[تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ .....]** (المعارج:٤) ....
- **[تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ .....]** (الزُّمر:٢٣) ....
- **[تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ]** (الزُّمر:٢٣) .

(الثاء)

- **[ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا .....]** (فاطر:٣٢) ....
- **[ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا .....]** (فاطر:٣٢) ....

(الحاء)

- **[حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ .....]** (فصِّلت:٢٠-٢١) ....

(الخاء)

- **[خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ]** (العلق:٢) ....

(السين)

- **[سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا .....]** (الأنعام:١٤٨-١٤٩) ....

(الفاء)

- **[فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا]** (النازعات:٥) ....
- **[فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ]** (الدُّخان:٥٨) ....
- **[فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ .....]** (الواقعة:٧٥-٧٩) .
- **[فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (٧٨) لا يَمَسُّهُ إِلا الْمُطَهَّرُونَ]** (الواقعة:٧٨-٧٩) ....

(القاف)

- **[قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا .....]** (الأعراف:١٢٨) ....
- **[قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ .....]** (الجنّ:١-٢) ....
- **[قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ .....]** (البقرة:٩٧) ......
- **[قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ .....]** (النحل:١٠٢) ....
- **[قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ .....]** (فصّلت:٤٤) ....

(الكاف)

- **[كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ .....]** (ص:٢٩) ....
- **[كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلا]** (الفرقان:٣٢)
- **[كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ]** (المطففين:١٤) ....

(اللام)

- **[لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ .....]** (القيامة:١٦-١٧) ....
- **[لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ .....]** (القيامة:١٦-١٩) ....
- **[لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ .....]** (القيامة:١٦-١٧) ....
- **[لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ .....]** (القيامة:١٦-١٧) ....
- **[لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ .....]** (القيامة:١٦-١٧) ....
- **[لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْءَانِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ]** (فصّلت:٢٦) ....
- **[لا يَمَسُّهُ إِلا الْمُطَهَّرُونَ]** (الواقعة:٧٩) ....
- **[لا يَمَسُّهُ إِلا الْمُطَهَّرُونَ]** (الواقعة:٧٩) ....
- **[لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ]** (البقرة:١٢٤) ....
- **[لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ]** (يس:٦) ...

- [لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ] (آل عمران:٧٥) ......

(الميم)

- [مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَد مِنْ رِجَالِكُمْ .....] (الأحزاب:٤٠) ....
- [مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ .....] (محمد:١٥) ....
- [مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا .....] (الجمعة:٥) ....

(النون)

- [نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ .....] (الشعراء:١٩٣-١٩٤) ..
- [نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ .....] (الشعرء:١٩٣-١٩٤)
- [نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ .....] (الشعراء:١٩٣-١٩٤) .

(الهاء)

- [هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ .....] (الشعراء:٢٢١-٢٢٢) ....
- [هَلْ يَنْظُرُونَ إِلا تَأْوِيلَهُ .....] (الأعراف:٥٣) ....
- [هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ .....] (الحشر:٢) ....
- [هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولا مِنْهُمْ .....] (الجمعة:٢) ....
- [هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا .....] (البقرة:٢٩) ....
- [هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا .....] (هود:٦١) ....
- [هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا] (هود:٦١) ....

(الواو)

- [وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ] (البقرة:٢٨٢) ....

- **[وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ .....]** (البقرة:١٢٤) ....
- **[وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ .....]** (البقرة:١٢٤) ....
- **[وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ .....]** (الأعراف:١٧٢-١٧٣) ..
- **[وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ .....]** (الأعراف:١٧٢-١٧٣) ..
- **[وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ .....]** (الأحزاب:٣٧) ....
- **[وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً .....]** (البقرة:٣٠) ....
- **[وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ .....]** (البقرة:٥٥)
- **[وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ]** (الأعراف:٢٠٤) ....
- **[وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ .....]** (الإسراء:٤٥-٤٦) ......
- **[وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى .....]** (الفتح:٢٦) ....
- **[وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ]** (الذاريات:٤٧)
- **[وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ]** (يس:٣٨) ....
- **[وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ]** (الرّحمن:٦) ....
- **[وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ .....]** (التوبة:٦) ....
- **[وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى .....]** (الأعراف:١٩٨) ...
- **[وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ .....]** (الأنعام:١٥٣) ....
- **[وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ]** (الزّخرف:٤٤) ....
- **[وَآيَةٌ لَهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا .....]** (يس:٣٣) ..
- **[وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ .....]** (إبراهيم:٣٣-٣٤) ....
- **[وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ .....]** (النحل:٩) ....
- **[وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ .....]** (الرعد:٤) ....
- **[وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ .....]** (فصّلت:٢٦) ....
- **[وَقَالُوا مَا هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا .....]** (الجاثية:٢٤) ..

- [وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ] (فصلت: ١٠) ....
- [وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلا] (الإسراء: ١٠٦) ......
- [وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ .....] (الأنفال: ٢١-٢٣) ......
- [وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي] (طه: ٣٩) ....
- [وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ .....] (الأعراف: ١٧٩) ....
- [وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ .....] (الأعراف: ١٧٩) ....
- [وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ .....] (الأنبياء: ١٠٥) ....
- [وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ .....] (الإسراء: ٧٠) ....
- [وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ] (القمر: ١٧) ....
- [وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ] (القمر: ١٧) ....
- [وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلا] (الإسراء: ٨٥) ....
- [وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ] (هود: ١١٧) ....
- [وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ .....] (فاطر: ١٢) ....
- [وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ .....] (فاطر: ١٢) ....
- [وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى .....] (النساء: ١١٥) ....
- [وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ .....] (الزخرف: ٣٦-٣٧) ....
- [وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ .....] (الأنعام: ١١٠) ...
- [وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ .....] (الإسراء: ٨٢) ....
- [وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ .....] (الإسراء: ٨٢) ....
- [وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ .....] (الإسراء: ٨٢) ....
- [وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ .....] (الإسراء: ٨٢) ....
- [وَوَجَدَكَ ضَالا فَهَدَى] (الضُّحى: ٧) ....
- [وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ .....] (النساء: ١١٥) ....

- [وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا] (الإسراء:١٠٩) ....
- [وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ .....] (الحج:٤٧) ....
- [وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ .....] (الروم:٥٥) ....

(الياء)

- [يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ .....] (البقرة:٢٦٩) ....
- [يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ .....] (البقرة:٢٦٩) ....
- [يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ .....] (البقرة:٤٧) ...
- [يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ .....] (البقرة:١٢٢) .
- [يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً .....] (البقرة:٢٠٨) ....
- [يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ .....] (النساء:١) ....
- [يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ] (الفتح:١٠) ....
- [يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ] (الرُّوم:٧) ....

فهرس الأحاديث والآثار

فهرس الأعلام

فهرس الموضوعات

- مفاهيم تدور حول التدبر
  - مفهوم الفكر.
  - مفهوم النظر.
- عقبات تحول دون التدبر.
  - الذنوب.
  - اتخاذ أحكام مسبقة من خارج القرآن قبل القراءة.
  - إشكالية الناسخ والمنسوخ.
  - الاختلاف.
  - غموض الغاية.

الفصل الثاني: مداخل التدبر

- التدبر ومداخله لدى السلف الصالح
  - الجيل الأول: جيل التلقي.
  - الجيل الثاني: جيل الرواية والنقل.
  - الجيل الثالث: جيل الفقه.
- التدبر ومداخله المعاصرة.
  - مدخل التعبد.

- مدخل القيم.
  - § التوحيد.
  - § التزكية.
  - § العمران.
- مدخل الوحدة البنائية للقرآن.
- مدخل عمود السورة.
- مدخل التصنيف الموضوعي.
- مدخل البحث في المناسبات.
- مدخل عالم الغيب وعالم الشهادة.
- مدخل العلاقة بين الله والإنسان والكون.
- مدخل عوالم الأمر والإرادة والمشيئة.
- مدخل التدافع بين الحق والباطل.
- مدخل تصنيف البشر بحسب مواقفهم من الرسل والأنبياء.
- مدخل اللغة والسياق وإدراك التناسب.
- مدخل قيام الحضارات وتراجعها.



طه جابر العلواني

من مواليد العراق عام ١٣٥٤ هـ - ١٩٣٥.

- دكتوراه أصول الفقه، كلية الشريعة والقانون، جامعة الأزهر ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٣.
- ماجستير كلية الشريعة والقانون، جامعة الأزهر ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨.
- ليسانس كلية الشريعة والقانون، جامعة الأزهر ١٣٧٨ هـ -١٩٥٩.
- شارك في تأسيس المعهد العالميّ للفكر الإسلاميّ في الولايات المتحدة عام ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ ثم ترأسّه مدة عشر سنوات ١٩٨٦_ ١٩٩٦م.
- رئيس جامعة قرطبة في الولايات المتحدة منذ ١٩٩٦ وحتى الآن.
- عضو مجمع الفقه الإسلاميّ الدوليّ بجدة ورئيس المجلس الفقهي لأمريكا الشمالية.

أحدث المؤلفات:

- معالم في المنهج القرآني. القاهرة: دار السلام، ٢٠١٠ .
- نحو إعادة بناء علوم الأُمّة الاجتماعية والشرعية بالاشتراك مع د. منى أبو الفضل. القاهرة: دار السلام، ٢٠٠٩.
- مفاهيم محوريّة، بالاشتراك مع د. منى أبو الفضل. القاهرة: دار السلام، ٢٠٠٩.
- التعليم الديني بين التجديد والتجميد. القاهرة: دار السلام، ٢٠٠٩.
- نحو التجديد والاجتهاد، جزءان. القاهرة: دار تنوير، ٢٠٠٨.
- الوحدة البنائية للقرآن المجيد. القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٦.
- لسان القرآن ومستقبل الأمة القطب. القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٦.
- نحو موقف قرآني من النسخ. القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٦.
- أزمة الإنسانية ودور القرآن الكريم في الخلاص منها. القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٥.

- الجمع بين القراءتين. القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٥.
- مقدمة في إسلاميَّة المعرفة. بيروت: دار الهادي، ٢٠٠١.
- لا إكراه في الدين. القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٥.
- إصلاح الفكر الإسلامي: مدخل إلى نظام الخطاب في الفكر الإسلامي المعاصر. بيروت: دار الهادي، ٢٠٠١.
- مقدمة في إسلامية المعرفة. بيروت: دار الهادي، ٢٠٠١.
- مقاصد الشريعة. بيروت: دار الهادي، ٢٠٠١.
- الخصوصية والعالمية في الفكر الإسلامي. بيروت: دار الهادي، ٢٠٠١.
- الأزمة الفكرية ومناهج التغيير. بيروت: دار الهادي، ٢٠٠١.
- نحو منهجية معرفية قرآنية. بيروت: دار الهادي، ٢٠٠١.
- تحقيق المحصول من علم أصول الفقه، ستة مجلدات.الإمام فخر الدين الرازي. بيروت: دار الرسالة، ١٩٩٢.

وهو قيد الطبع في طبعة ثالثة في دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع في القاهرة.

هذا الكتاب

دعوة إلى العودة للنبع الصافي والمعين الأول، القرآن الكريم، واستلهام معانيه وهديه في حل مشكلات النفس والمجتمع والعالم، عبر مداخل مقترحة تثور آياته، وتكشف وحدته، لمداومة النظر والتفكر والتدبر والتبصر، ليكون آيات لأولي النهى واللباب.

الناشر